رثاء الأم بين ابن نباتة السعدي والشريف الرضي

دراسة تحليلية موازنة

دكتور

يوسف محمد عزاز يوسف

مدرس الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية بالمنوفية

ض

ض

ض

المقدمة

الحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وصلاة وسلاما على خير ولد عدنان، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه ،وسار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فالرثاء يعد من أصدق فنون الشعر ؛وذلك لبعده عن التزلف والتقرب من ذوي السيادة والجاه ، وقيامه على الوفاء لأشخاص طواهم الردى تحت أطباق الثرى ولذا فالمشاعر صادقة، والنفوس مكلومة ، وظاهرة الموت من الظواهر التي حيرت العقول واحتفى بها الشعراء منذ العصر الجاهلي وحتى اليوم ، ولا تغيب عن مخيلة الشعراء وخاصة إذا غيب الموت من يحبون وقد اعتنى النقاد بشعراء المراثي فهذا محمد بن سلام الجمحي يصنفهم في طبقة خاصة بهم .

وقد اخترت قصيدتين في رثاء الأم الأولى لابن نباتة السعدي والثانية للشريف الرضي لدراستهما وقد استعنت" بالمنهج التكاملي" لدراسة هاتين القصيدتين ، وجاءت هذه الدراسة تحت عنوان :"رثاء الأم بين ابن نباتة السعدي والشريف الرضي دراسة تحليلية موازنة " وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة مباحث هي :

المبحث الأول : تناولت فيه مفهوم الرثاء في اللغة والاصطلاح ، وعلاقة الرثاء بالمدح ، والتعريف بالشاعرين ، وآراء النقاد في شاعريتهما .

المبحث الثاني : التحليل اللغوي والبناء الموضوعي للقصيدتين .

المبحث الثالث :البناء الفني للقصيدتين وجاء في محاور ثلاثة هي :

1ـ التجربة الشعرية .

2ـ الصورة الشعرية .

3ـ الموسيقا

المبحث الرابع : الموازنة بين القصيدتين .

وخلال هذا البحث عشت مع هذين الشاعرين في تجربتهما فوجدت مشاعر صادقة وخيالات رائعة ونفوس تقطر حزنا وتذوب ألما وتذرف الدمع مدرارا في صور شعرية رائعة مثلت نفوس أصحابها وما كانوا يتمتعون به من روابط أسرية أذكتها الشريعة الإسلامية الغراء خلال هذ النسق القرآني البديع الذي يوصي بالإحسان إلى الوالدين مع مزيد عناية بالأم ؛لأنها تتحمل الآلام والأوضار وتغدق الود والمحبة على أبنائها وفي هذا يقول المولى جل وعلا :" وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ" (1)

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

(1)الآية من سورة لقمان رقم (14) .

المبحث الأول

المدلول اللغوي للرثاء

وردت كلمة "رثى " في اللغة في صورة "رثى " فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته قيل رثاه يرثيه ترثية . ورثيت الميت رثيا ورثاء ومرثاة ومرثية ورثيته :مدحته بعد الموت وبكيته ورثوت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا " (1) والمعاني السابقة للكلمة لا تختلف عن المعنى الاصطلاحي للرثاء فتعداد صفات المرثي النبيلة لا تغيب عن مخيلة المبدع ساعة تحبيره لنبضات قلبه وعاطفته السامية وأناته وزفرات وجدانه تجاه صاحب المرثية وتقول :رثيت حديثا عنه أرثي رثاية :ذكرته نقله الأزهري والجوهري عن أبي عمرو وحكى اللحياني : رثيت عنه حديثا أي (حفظته) عنه وكذلك رثوت عنه قال ابن سيده : والمعروف نثيت عنه خبرا أي حملته "(2) و" المرثاة ما يرثى به الميت من شعر وغيره (ج)مراث ... والترثي : ندب الميت والرثاية : النواحة "(3)

المدلول الاصطلاحي للرثاء :

والمعاني التي وردت في اللغة لا تكاد تختلف عن معاني الرثاء في الاصطلاح الأدبي ومما يؤكد ذلك أن صاحب معجم المصطلحات الأدبية يقول :" الرثاء هو التعبير عن حزن الشاعر وفجعه بموت شخص عزيز

([1])لسان العرب لابن منظور ط دار إحياء التراث العربي ط مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان سنة 1419هـ-1999م ج5 ص 138 .

([2])تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الذبيدي ط مكتبة حكومة الكويت سنة 1979م ج38 ص 126 .

([3])المعجم الوسيط ط الثالثة ط مطابع الدار الهندسية ج1 ص 341 .

عليه فيبكيه في شعره ذاكرا صفاته النبيلة وما كان يتحلى به من خصال حسنة ويصور لنا حزنه وألمه وبكاءه عليه وما أصبح عليه من حالة سيئة لا تعرف سوى الحزن والبكاء " (1)

وأرى أن الرثاء هو التعبير الفني عن مشاعر صادقة يكنها الأديب للمرثى حاملة عواطفه الصادقة التي يذرفها الأديب عندما يباغته الدهر بفقد عزيز لديه فتتجلى في صور شتى ملؤها الحزن، وعنوانها الألم والحسرة على فراق الأحباب والأصفياء الذين عز وجودهم .

وقد فرق الدكتور شوقي ضيف بين الندب والتأبين والعزاء فقال :" الندب هو بكاء الشاعر الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت فيئن الشاعر ويتفجع إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح فيبكي بالدموع الغزار وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته ... والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم و يؤثرهم ... وليس التأبين نواحا ولا نشيجا على هذا النحو بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص إذ يخر نجم لامع من سماء المجتمع فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه ومن هنا كان التأبين ضربا من التعاطف والتعاون الاجتماعي فالشاعر لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها ولذلك يسجل فضائله ... والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين

([1])معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب مجدي وهبة ط مكتبة لبنان ط الثانية 1984م ص 176 .

إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة " (1)

والكلام السابق يحتاج إلى وقفة ؛لأن تجريد التأبين من المشاعر الصادقة أمر لا يقبله العقل ولا يتفق مع منطق الحياة فقد يعبر الشاعر عن مشاعره الذاتية إزاء من يأبنه ،وخير شاهد على صحة ما أقول رثاء البحتري للخليفة المتوكل عندما قتل غدرا على يدي جنوده وغلمانه وقد عبر البحتري عن مشاعره الذاتية في ذلك عندما قال :[من الطويل]

ولـــوكـــانَ سَـــيْفِي ســـاعةَ القتـــلِ فِي يَـــدِي* دَرَى القاتـــلُ العجـــلانُ كيـــفَ أَســـاوِرُهْ**

حَـــرَامٌ علـــيَّ الـــرَّاحُ بَعْـــدَكَ أَوْ أَرَى* دَمـــابـــدَمٍ يَجْـــرِي علـــى الأَرضِ مـــائُرُهْ**

وهـــلْ أَرْتَجـــي أَنْ يطلُـــبَ الـــدَّمَ وَاتـــرٌ* يـــدُ الـــدَّهرِ والموتـــورُ بالـــدَّمِ واتِـــرُهْ(لج)**

علاقة الرثاء بالمدح :

وحول علاقة الرثاء بالمدح أجد أن ابن رشيق القيرواني يقول :"و ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن الموصوف به ميت مثل "كان أو "عدمنا به كيت وكيت أو ماشاكل هذا ليعلم أنه ميت"(3)

وقد أكد قدامة بن جعفر هذا الأمر فقال :" ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل أنه لهالك مثل :كان وتولى وقضى نحبه وما أشبه ذلك ، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه ؛لأن تأبين الميت

([1])الرثاء الدكتور شوقي ضيف ط الرابعة ط دار المعارف ص 5 .

([2])ديوان البحتري ت حسن كامل الصيرفي المجلد الثاني ط الثالثة ط دار المعارف ص 1048 .

([3])العمدة لابن رشيق القيرواني ت الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ط مكتبة الخانجي بالقاهرة ج2 ط الأولى سنة 1398هـ2000م ص 83 .

إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته " (1) ويبدو لي أن الرثاء يختلف عن المدح ؛لأن الباعث عليهما قد اختلف والتجربة فيهما مختلفة تمام الاختلاف فكيف نسوي بين التجربتين وقدامة قد حصر نفسه في دائرة الصفات النفسية وهي العقل والشجاعة والعفة والحلم فلم يشأ أن يغادرها ليحدثنا عن العاطفة التي هي محل الاختلاف بين التجربتين وهو معذور في ذلك فقد كان ينظر إلى الأدب بعين العقل متأثرا في ذلك بالثقافات الأجنبية التي كانت سائدة في عصره . ومن النقاد المعاصرين الذين أكدوا قوة العلاقة بين المدح والرثاء الدكتور / محمد مصطفى هدارة حيث يقول عن الرثاء :" هو تمجيد لخصال الميت في مقابل المديح الذي هو تمجيد لخصال الحي" (2) وإنني لا أختلف مع الناقد حول تمجيد خصال المرثي كما كان يمجد بخصاله حيا ولكنني أرى أن العاطفة والشعور والأحاسيس بين قصيدة المدح وقصيدة الرثاء مختلفة فمن يقول وهو جذلان غير الذي يقول والأسى يسري في جوانح قلبه .

([1])نقد الشعر لأبي الرج قدامة بن جعفر ت الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ط الأولى ط مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1398هـ1978م ص 118

.

([2])اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د/ محمد مصطفى هدارة ط المكتب الإسلامي ط الأولى سنة 1401هـ 1981 م ص 464 .

التعريف بالشاعرين : أولا : ابن نباته السعدي:

مولده ونشأته :

"هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباته بن حميد بن نباته ...التميمي السعدي كان شاعرا مجيدا جمع بين حسن السبك وجودة المعنى " (1) وقد " أخبر عنه التنوخي قال: " قال لنا ابن نباتة : ولدت في سنة سبع وعشرين وثلاث مئة ويقول البغدادي عن وفاته : حدثني التنوخي وهلال بن المحسن قالا توفي أبو نصر بن نباتة الشاعر في يوم الأحد الثالث من شوال سنة خمس وأربع مئة "(2)

صفاته وأخلاقه :

كان ابن نباته " شجاعا لا يهاب وخير دليل على ذلك الهجاء الطويل الذي هجا به ابن إسماعيل الذي ناصبه العداء أما وفاؤه الذي عرف به والذي تتراءى لنا من خلال نفسه الطاهرة فهو ظاهر في رثائه لابن الأهوازي الذي قتله سيف الدولة وكان صديقا له ، وكان حاد الذكاء بعيدا عن الخنوع والتذلل فلم نعرف عنه أنه قبل الأرض بين قدمي أحد في زمان كان فيه تقبيل الأقدام والتراب بين الأقدام وسيلة من وسائل العيش والتزلف والتقرب للوصول إلى الجاه والمال والسلطان ، وكان ساخطا على زمانه متبرما منه يرى أن النفاق قد شاع فيه قال : [من الكامل]

([1])وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ت الدكتور إحسان عباس ط دار صادر بيروت ج3 ص 386

([2])تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وورادیها للخطيب البغدادي ت د/ بشار عواد معروف المجلد الثاني عشر ط دار الغرب الإسلامي سنة 1422هـ2001م ص 241 .

شَـــاعَ النِّفـــاقُ فمـــا أرى أحـــداً* يُبْـــدِي الرِّضَـــا إلا علـــى رَغْـــمِ(لج)

"وكان كثير الشكوى من الزمان متشائما وهذا التشاؤم صفة متميزة في كيانه بادية في أقواله وأفعاله فقد انعكست هذه السمات في شعره قال في الشكوى وذم الزمان :[من الكامل]

يـــــأبى مُقَـــامِي في مكـــانٍ واحـــدٍ* دَهْـــرُ بتـــفريقِ الأحـــبَّةِ مُولَـــعُ
كفكـــفْ قِســـيَّكَ يـــا فـــراقُ فإنـــه* لم يبـــقَ في قلـــبي لســـهمك مَوْضِـــعُ
يَـــوْمٌ أحـــرُّ مـــن الصَّـــبَابةِ في الهـــوى* وأمـــرُّ مـــن تُكْـــلِ البنـــينَ وأوجَـــعُ(لج)

آراء النقاد في شاعرية ابن نباتة السعدي :

قال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر :" من فحول شعراء العصر وأحادهم وصدور مجيدهم وأفرادهم ، الذين أخذوا برقاب القوافي ، وملكوا رق المعاني وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام مستمر النظام يشتمل على غرر من حر الكلام كقطع الروض غب القطر وفقر كالغنى بعد الفقر وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب "(3)

وقال عنه البغدادي :" هو أحد الشعراء المحسنين المجودين كان جزل الكلام فصيح القول "(4) وقد اعترف ابن ناقية بمنزلته الشعرية عندما

([1])ديوان ابن نباتة السعدي ج1 ت عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ط منشورات وزارة الإعلام الجمهورية العراقية سنة 1977م ص 30 .

([2])ديوان ابن نباتة السعدي ص 33 .

([3])يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي شرح وتحقيق الدكتور / مفيد محمد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ج2 ص 447 .

([4])تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج 12 ص 241 .

سئل عنه وعن المتنبي والشريف الرضي فقال :" إن مثلهم عندي مثل رجل بنى أبنية شاهقة وقصورا عالية وهو المتنبي فجاء آخر وضرب حولها سرادقات وخيما وهو ابن نباتة ثم جاء الرضي ينزل تارة عند هذا وتارة عند ذاك "(1)

وقد أشاد بشاعرية ابن نباتة أبو حيان التوحيدي وذلك في معرض حديثه عنه فقال :" وأما ابن نباتة فشاعر الوقت لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند قد لحق عصابة سيف الدولة وعدا معهم ووراءهم حسن الحذو على مثال سكان البادية لطيف الإتمام بهم خفي المغاص في واديهم ظاهر الإطلال على ناديهم هذا مع شعبة من الجنون وطائف من الوسواس "(2)

وأما ابن نباتة فله رأي في الشعر يعلي من قيمته ويؤكد أفضلية الشعر على غيره من فنون القول إذ به يحتج العلماء وفي ذلك يقول:" من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه والحجج لا تؤخذ إلا منه أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون : قال الشاعر " و هذا كثير في الشعر و" الشعر قد أتى به " فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة والشعر هو الحجة "(3) ويقول عنه محقق ديوانه :" إن ابن نباتة السعدي كان من أولئك الشعراء الأفذاذ الذين يضن الزمان بمثلهم فقد كان شاعرا كما كان ناقدا وراوية للشعر وصاحب مقامات وقد يقول الشعر بديهيا وكان خطيبا وهذه صفات قلما تجتمع في شخص واحد ويستطيع

([1])ديوان ابن نباتة السعدي ج1 ص 56 .

([2])الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ت أحمد أمين وأحمد الزين ط مكتبة الحياة للطباعة والنشر ج1 ص 137 .

([3])السابق ج2 ص 136 .

الإجادة في جميعها فهو إذا فحل من فحول الشعراء ونظن أننا لا نبالغ إذا ما قلنا أنه كان من الطبقة الأولى فيهم فثقافته في اللغة ظاهرة أما الفلسفة التي احتلت جانبا مهما من شعره فقد طبعت آراؤه في حكمه التي عج بها ديوانه ودلت على ذكاء متوقد وسعة في المعرفة "(1)

ثانيا الشريف الرضي :

الشريف الرضي : هو " أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى .... ومولده ببغداد سنة تسع وخمسين وثلاث مئة وبدأ بقول الشعر بعد أن جاوز عشر السنين بقليل وهو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق يتحلى مع محتده الشريف و مفخره المنيف بأدب طاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر ثم هو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثر شعرائهم المفلقين "(2) وقال عنه الخطيب البغدادي :" ذكر لي أحمد بن عمر بن روح عنه أنه تلقن القرآن بعد أن دخل في السن فجمع حفظه في مدة يسيرة قال: وصنف كتابا في "معاني القرآن " يتعذر وجود مثله وكان شاعرا محسنا "(3)

وقال ابن خلكان عنه :" وذكر أبو الفتح ابن جني النحوي ـ المقدم ذكره ـ في بعض مجاميعه أن الشريف الرضي المذكور أحضر إلى ابن السيرافي النحوي وهو طفل جدا لم يبلغ عمره عشر سنين فلقنه النحو وقعد معه يوما في حلقته فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم فقال له : إذا

([1])ديوان ابن نباتة السعدي ج1 ص 80 .

([2])يتيمة الدهر للثعالبي ت د/ مفيد قميحة ج3 ص 155 .

([3])تاريخ بغداد ج3 ص 40 .

قلنا " رأيت عمر" فما علامة النصب في عمر ؟ فقال له الرضي : بغض علي فعجب السيرافي والحاضرون من حدة خاطره "(1)

صفاته وأخلاقه :

كان الشريف الرضي يعتد بنفسه ويتيه بها فخرا ومن دلائل ذلك قوله : [من المتقارب]

أنا ابن الأناجبِ من هاشمٍ* إذا لم تكنْ نُجُبُ من نُجبْ

تلاثُ برودهم بالرماح* وتلوى عمائمهمْ بالشهبْ

عتاق الوجوه وعتق الجيا* د في الضمر تعرفه والقببْ

يشف الوضاء خلال الشحوب منها * وخلف الدخان اللهب (لج)

"ومما وصف به الرضي شرف النفس وعلو الهمة ، وأنه لم يقبل من أحد صلة ... وكان يحمل نفسا عظيمة لم تتصاغر تصاغر غيره من الشعراء فيقف بباب الخلفاء والملوك تنتظر جزاء على الشعر ذلك أنه كان لا يرضى بميسم الشعراء حيث يقول مخاطبا أباه :

وعلاك لا يرضى بأني شاعر

وإنما كان يخطب ود الخلفاء والملوك والوزراء بشعره ويجعله وصلة إلى ما يريده من مجد ولم نجد في أخباره أنه قصد خليفة أو ملكا أو غيرهما لينال رفده ويحصل على جائزته وإنما كانت قصائده مهورا لعقائل المكرمات وطريقا توصله إلى ما يريد من تكرمة ورفعة وقد عبر عن أنفته من التكسب عن طريق المديح في مقطوعته :[من بحر البسيط]

كم عرَّضُوا لي بالدِّنيا وزُخْرُفِها* مع الهُلُوكِ فلم أرفعْ بها راسَاً

([1])وفيات الأعيان لابن خلكان ج4 ص 416 .

([2])يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ج3 ص 172 .

وكيـــفَ يَقْبَـــلُ رِفْـــدَ النـــاسِ مُحـــتمِلا* ذُلَّ المطالِـــبِ مِـــنْ لا يمـــدحُ الناسَـــا(لج)

وكان الشريف الرضي يعامل الخليفة المعتضد معاملة الند للند والصديق للصديق ولا يرى غضاضة في ذلك ويرى أنه متفق معه في الشرف والسؤدد وينماز عنه بالخلافة وقد صرح بذلك في شعره الذي يقول فيه :[من الكامل]

عطفـــا أمـــيرَ المـــؤمنين فإننـــا* في دوحـــةِ العـــــلياءِ لا نتفـــــرقُ

مـــا بيننـــا يـــومَ الفخـــارِ تفـــاوتٌ* أبـــــداً كلانـــــا في المعـــــالي معـــــرقُ

إلا الخلافـــة ميزتـــك فـــإنني* أنـــا عاطـــلُ منهـــا وأنـــتَ مطـــوَّقُ(لج)

ويقول ابن خلكان :" لقد أخبرني بعض الفضلاء أنه رأى في مجموع أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضي المذكور" بسرى من رأى " وهو لا يعرفها وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها وأخلقت ديباجتها وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة وحسن الشارة فوقف عليها متعجبا من صروف الزمان وطوارق الحدثان وتمثل بقول الشريف الرضي المذكور :[الكامل]

ولقـــد وقفـــتُ علـــى ربـــوعهم* وطُلُولُهـــا بيـــدِ البِلَـــي نَهْـــبُ

فبكيـــتُ حتـــى ضَـــجَّ مـــن لغَـــبٍ* نِضـــــوى ولجَّ بِعزلـــــيَ الرَّكـــــبُ

وتلفتـــتْ عـــيني فمـــذ خَفِيـــتْ* عنِّـــي الطُّلـــولُ تلفـــتَ القلـــبُ

([1])الشريف الرضي حياته ودراسة شعره د/ عبد الفتاح محمد الحلو القسم الأول ط هجر ط الأولى سنة 1406 هـ 1986م ص 81 .

([2])يتيمة الدهر للثعالبي ج3 ص 163 .

فمر به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات فقال له : هل تعرف هذه الدار لمن هي؟ فقال: لا فقال: هذه الدار لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضي فتعجبا من حسن الاتفاق "(1) .

آراء النقاد في شاعرية الشريف الرضي :

تفجرت ينابيع الموهبة لدى الشريف الرضي " إثر حادثة سياسية حين قبض عضد الدولة على والده وزج به في السجن في قلعة بفارس وكانت سن الرضي آنذاك قد تجاوزت العشر بقليل ولكن الفتى صاغ شجون نفسه ومأساة أسرته في قصائد شجية ودفعته هذه الحادثة إلى التعلق بأبيه وأمجاده وجعلته يفكر في المخاطر ويتعجل الخطوات نحو المجد ويجبه المجتمع بقوله : [الرجز]

ســـــتعلمونَ مـــــا يكُـــــونُ مِنِّـــــي* إنْ مـــدَّ مِـــنْ ضَـــبْعِي طُـــولُ ســـني (لج)

ويقول الثعالبي عن شاعرية الشريف الرضي :" شعره العالي القدح الممتنع عن القدح الذي يجمع إلى السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها "(3) ويقول عنه الخطيب البغدادي :" سمعت جماعة من أهل العلم والأدب يقولون : الرضي أشعر قريش فقال : ابن محفوظ هذا صحيح وقد كان في قريش من يجيد القول إلا أن شعره قليل فأما مجيد مكثر فليس إلا الرضي "(4) ويقول ابن أبي الحديد عنه :" وكان الرضي عالما أديبا وشاعرا مفلقا فصيح النظم ضخم

([1])وفيات الأعيان لابن خلكان ج4 ص 416 .

([2])الشريف الرضي حياته ودراسة شعره د/ عبد الفتاح محمد الحلو القسم الثاني ص 34 .

([3])يتيمة الدهر للثعالبي ج3 ص 155 .

([4])تاريخ بغداد ج3 ص 41 .

الألفاظ قادرا على القريض متصرفا في فنونه وإن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العجاب وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يشق فيه غبار وإن قصد المراثي جاء سابقا والشعراء منقطع أنفاسها على أثره (1) وقال عنه الدكتور زكي مبارك :" هو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وأعظم شاعر تنسم هواء العراق إن الشريف الرضي كان شاعر القلب والعقل والذكاء ... شارع الإنسانية يفصح عما تعاني من شهوات وأهواء وألام وأرزاء وأمان وأمال "(2) ويقول الدكتور / محمود حلاوي عن شاعرية الشريف الرضي :" تأثر الرضي بالتراث الشعري العربي منذ الجاهلية وحتى عصره ففي منهجه وأسلوبه نلمح أثر امرؤ القيس والنابغة وزهير من شعراء الجاهلية كما نلمح أثر الفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وابن الدمينة من شعراء العصر الأموي ويبدو أثر أبي تمام وأبي فراس والمتنبي خاصة من شعراء العصر العباسي

إن موسيقى الشعر بارزة بشكل واضح ومؤثر، فقصيدة الشريف قطعة موسيقية عذبة الألحان عندما تكون غزلا، وشجية الألحان عندما تكون عتابا وشكوى، وهائجة مائجة عندما تكون ثائرة على الزمان أو الأوضاع أو الناس ونائحة باكية عندما تكون رثائية "(3) و مما سبق نعلم أننا في محراب شاعر يملك أدوات فنه الشعري ، وله موهبة غزاها بالثقافة العربية

([1])شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ت محمد إبراهيم ط دار الكتاب العربي المجلد الأول ط الأولى 1428هـ 2007م ص 21 .

([2])عبقرية الشريف الرضي د/ زكي مبارك ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة سنة 2012 م ص 18، 23 .

([3])ديوان الشريف الرضي ت د/ محمد مصطفى حلاوي ج1 ط دار الأرقم ص 51 .

الأصيلة في عصر كان يموج بالعلم والمعرفة والثقافات المختلفة ؛ ولهذا شق الشاعر لنفسه طريقا تفرد فيه وأبدع في فنون الشعر المختلفة من مدح ورثاء وفخر ووصف وشكوى من نوازل الدهر التي حلت به ، فقد كان يحمل بين طياته نفسا أبية لا تعرف الخور وإنما تملك زمام الأمور ؛لتسجل المجد العربي والشيم القرشية في زمن علا فيه من لا يعلو وباتت الصراعات على أشدها لتضعضع المجد العربي وتزلزل أركانه وتقسمه إلى دويلات وقد تحقق لهم ما أرادوا حتى لم يبق من الخلافة غير الاسم ، وعن شعر الرثاء يقول الدكتور / يوسف شكري :" يلاحظ المتتبع لشعر الشريف الرضي أنه أمام شاعر كثير البكاء على الراحلين من أقاربه وأصدقائه دائم الحزن والألم بسبب ما فعلته الأيام بأهل بيته الطالبيين ، وقد وجد في مأساة الحسين صريع كربلاء متنفسا لهمومه ومجالا للتعبير عن آلام الشيعة فنهج في مراثيه للحسين منهجا جديدا إذ افتخر بأهل البيت وذكر قبورهم وتشوق إليها ولم يكن رثاء الشريف الرضي بكاء وعويلا بقدر ما جاء تسجيلا للمناقب وتعدادا للفضائل كما يركز على مصير الإنسان وعدم جدوى البكاء ويشدد على هول الفاجعة وأثرها ويترك مجالا للتعزية والمؤاساة "(1)

(1)ديوان الشريف الرضي ت د/ يوسف شكري فرحات ط دار الجيل بيروت ط الأولى 1415 هـ 1995م ص 8 .

ض

المبحث الثاني

التحليل اللغوي والبناء الموضوعي للقصيدتين

أولا قصيدة ابن نباتة السعدي :

أيادمعُ هل للحزنِ عندكَ مَطْمَعُ ... فما كلُّ مَحْزُونٍ إلى الدَّمعِ يفْزَعُ

وإنْ كنتَ قد أفنيتَ ما آل فاستعرْ ... دم القلبِ واعلمْ أنَّ ضركَ يَنْفَعُ

تداعتْ[1] بلا طعنٍ أنابيبُ عاملي ... وأصبحَ حدي بالنوائبِ يُقْطَعُ (لج)

نفوسٌ على زاذانَ[2] ينشدها الحجى ... وليس لها حتى القيامةِ مَرْجِعُ (لج)

وقد برانِ بالزوراءِ أُمِّي ووالدي ... كلا طَرْفي[3] مَجْدِي يُجَبُّ ويُجْدَعُ (لح)

وبالريِ إسماعيلُ أوهنَ[4] كيدُهُ ... وأرماحُهُ دونَ المنيةِ شُرَّعُ ( )

وليس بخيرٍ من رجالٍ رزئتُهم ... على أنَّ حدثانَ[5] المصائبِ أَوْجَعُ (بر)

فقد تُكبيراً بَرَّأم حفيّةٍ ... كما فقدَ الثديُ المعللُ مُرْضَعُ

إذا اختفرتْ[6] زانَ الحجالَ عفافُها ... وإنْ سفرتْ فبالحياءِ تُقَنَّعُ (تر)

([1])تداعت : هلكت ، الأنبوب : ما بين الكعبين من القصب والقناة ، عاملي : من الرمح أعلاه مما يلي السنان بقليل ، حدي : بأسي ونفاذي في الأمور .

([2])زاذان : تل زاذان موضع قرب الرقة ، الحجى :العقل .

([3])طرفي : الطرف الكريم من الناس ، يجب : يقطع ، يجدع : قطع أنفه أو طرف من أطرافه .

([4])أوهن : أضعف ، الرمح : قناة في رأسها سنان يطعن به .

([5])الرزء : المصيبة ، حدثان : وأوله وابتداؤه .

([6])اختفرت : يقال خفره خفرا وخفارة أجاره وحماه والمراد بها في البيت لبست القناع وغطت رأسها . سفرت : كشفت عن وجهها .

أخافُ عليكِ الموتَ في شهرِ ناجرٍ ... ولم أدرِ أنَّ الأمرَ أوحى وأسرعُ (لج)

وأنَّ المنايا إذْ غدوتِ قريرةً ... غدتْ لكِ في أثوابِها تتصنَّعُ (لج)

تبادرُ نحوي تبتغي أنْ تَسُرني ... ولم تدرِ أنِّي بالسرورِ أروَّعُ

فليتَ النساءُ المعولاتِ فديتَها ... من السوءِ أوضاجعنَها حيثُ تَضْجَعُ

عشيةَ يستصرخنني لدعائِها ... وهلْ يدفعُ الناسُ الحِمامَ فأدفعُ

لقد فطنَ الدهرُ الغبيُّ لنكبةٍ ... يذلُّ لها عبدُ العزيزِ ويَضْرَعُ (لح)

هنيئاً لهُ أنِّي ألمتُ لصرفِهِ ... وأنِّي من أحداثِهِ أتَخشَّعُ ( )

ولمْ ترعَ لي يا دهرُ حقَّ نزاهتي ... وتركي لكَ الشيءَ الذي كنتُ أمنعُ

عسى قائمُ المأثورِ يركبُ صدرَهُ ... إليكَ وما بيني وبينكَ أصبَعُ (بر)

ترديتَ تَهوى بعدما كنتَ والسُّهَا ... يقولُ المماري أيُّ هذين أرفعُ (تر)

أخالُكَ صَباً بالإقامةِ مُعْجباً ... وأنتَ على وشكِ التفرقِ مُزْمِعُ

فواأسفى لم أدرِ أنَّكَ خائنُ ... فكنتُ بأقصى لمحةٍ أتمتعُ

لدى وقفةٍ لا تأملُ العينُ نظرةً ... سواها ولا يرجو اللقاءَ مودَّعُ

([1])ناجر : هوكل شهر في صميم الحر واسم اطلق في الجاهلية على كل من رجب وصفر حيث وقع كل منهما في الحر وكان التوقيت شمسيا .

([2])تتصنع : تتظاهر بما ليس فيها .

([3])النكبة : المصيبة ، يضرع : يضعف وينحف .

([4])لصرفه : نوائبه وحدثانه جمع صروف ، أتخشع : أتذلل وأتضرع وأتكلف الخشوع .

([5])القائم : الطالب يقوم على الأمر ، المأثور : ما ورث الخلف عن السلف ، أصبع : الأثر الحسن .

([6])ترديت : سقطت ، تهوي تسقط ، السها : كوكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى او الصغرى ، المماري : المناظر والمجادل .

إلى أيِّ تعليـــــــــلٍ وأيِّ مَبَـــــــــرةٍ ... ووِدِّنصـــــيحٍ بعـــــدَودِّكَ أَرْجِـــــعُ

ولمْ تُبـــقِ في الأيـــامِ بعـــدكِ لـــذةُ ... ولا متعـــةٌ يُلـــهوبهـــا المتمتِّـــعُ

أبـــى الـــدَّمعُ يـــومَ الـــدورِ أنْ ينصـــرَ الأسـى ... فـــلا ذرفـــتْ عـــينٌ ولا فـــاضَ مـــدمعُ

ويـــا ليتـــه لمـــا حكـــى جفـــوةَ الكَـــرى ... حكـــى جَزعـــي أوكـــان للـــبينِ يَجْـــزَعُ(لمج)

بنفســـي ونفـــسِ المكرمـــاتِ حشاشـــةٌ ... تَصَـــعَّدُ في أنفاسِـــهاوترفـــعُ

شـــهدتَ فمـــا أغنيـــتَ عنهـــا قُلامـــةً ... وأنـــتَ تـــرى مـــا تحـــبُّ وتَسْـــمَعُ(لج)

صـــريعُ علـــى أيـــدي العوائـــدِ مُـــدنفٌ ... يغالـــبُ فيـــه روعـــةَ اليـــأسِ مَطْمَـــعُ

أصـــابَ الـــردى قَـــوْمي بســـهمٍ أصـــابهُ ... ولم يـــدرِ رامٍ قلبُـــه كيـــفَ يَصَـــنعُ

وكنـــتُ بهـــم جـــاراً فصـــرتُ مُجـــاوراً ... أُطـــرَدُ عـــن ســـورِ الحيـــاضِ وأُقْـــزَعُ

أَحُـــلُ مَـــعَ البرشـــاءِ داراً ذليلـــةً ... بهـــا الكلـــبُ يُحْمَـــى والصـــديقُ يُضَـــيَّعُ

تـــدِبُّ مُســـتنَّ الريـــاحِ بيـــوتُهم ... ولـــيس لرحلـــي في المـــواطنِ موضِـــعُ

فـــلا أنـــا راضٍ بالدنيـــةِ فـــيهم ... ولا غضـــبي عنـــدَ الحفيظـــةِ يَنْفَـــعُ

وكُنْـــتُ دفقـــتُ العـــزَّ يـــومَ عُرَيْعِـــرٍ ... وأيقنـــتُ أنِّـــي بعـــدهأتضعضـــعُ

وفارقـــتُ فتيانـــاً كـــأنَّ خـــدودَهم ... متـــونُ صـــفاحٍ في قنـــا يتزعـــزعُ

أُشـــيِّعُ مـــنهم هالكـــاً بعـــدَهالـــكٍ ... وكـــانَ النـــدى ألا يعـــودَ المُشَـــيَّعُ

فـــلا لُبيـــتْ بـــالغوثِ دعـــوةُ صـــارخٍ ... دعـــاهُم إلى آجـــالهم فتســـرعُوا

أرى مـــنهم ظهَـــرَ البســـيطةِ عاريـــاً ... ومـــا اجتمعـــوا إلا لأنْ يتصـــدَّعُوا

([1])الكرى: القبور جمع كروة أو كرية. جزعي: عدم الصبر على ما نزل به. به.

([2])قلامة : القلامة ما قطع من طرف الظفر أو الحافر أو العود وقلامة الظفر الظفر مثل في القلة والحقارة يقال لم يغن عني قلامة ظفر .

برابيةِ الدورِ الشجاعةُ والندى أقامَ وقالا حبَّذا المتربَّعُ (لمج)

فمن لذبابِ الشرِّ يُخشى ويُتقى وللخيرِ يرجوه الضريكُ المُدفَّعُ (لج)
سقى الرائحُ الغادي قبوراً كأنَّها ظهورُ جمالٍ بُركتْ وهي ضُلَّعُ (لح)
ولا زالَ هدارٌ من الرعدِ مُغْمَدُ يَحِنُ ومسلولٌ من البرقِ يلمعُ ( )
معاهدُ يأسٍ كل يومٍ تزورُها دموعُ البواكي والنحيبُ المرجعُ (بر)
وذاك الوفاءُ لا وفاءُ مفارقٍ يشُطُّ به نأيُ الديارِ ويَجْمَعُ
غنيتُ عن الدنيا فلا أنا عُسرَها أخافُ ولا ميسورها أتوقَّعُ
تملُّ سوى آمالِنا ورجائنا وكيف يُمَلُّ المطلبُ المتوقَّعُ؟
إذا جَنَّ ليلٌ قيلَ أينَ صباحُهُ وكُلُّهُمُ بالليلِ والصُّبحِ يُخْدَعُ
وكَمْ من نعيمٍ قد لبستُ رداءَه وشُرِّ له كُلُّ المطالعِ مَطْلَعُ
ومِنْ لذةٍ ولتْ كأنَّ وصالَها وصالُ خيالٍ في الكَرى حينَ أَهْجَعُ
مع الوقتِ يمضي بؤسُهُ ونعيمُه كأنْ لمْ يكنْ والوقتُ عمرك أجْمَعُ
وما خيرُ عيشٍ نصفُه سِنةُ الكَرى ونصفُ به يَعْتَلُ أو يتفجعُ
وأُقسِمُ لو أعطيتَهُ متخيِّراً لما كنتُ إلا بالوثيقةِ أَقْنَعُ

([1])الرابية : ما ارتفع من الأرض .

([2])ذباب : اسم يطلق على كثير من الحشرات المجنحة وذباب الشر كناية عن التأذي من الشر .

([3])ضلع : يقال أضلعت الدابة لم تقو على الحمل وأضلعته الخطوب أثقلته واشتدت عليه .

([4])هدار: مبالغة في الهدير وهو السقوط ، مغمد : مغمود أي مغطى بالماء .

([5])معاهد : المعهد هو القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل ، النحيب : الإعلان بالبكاء .

الرؤية الموضوعية لقصيدة ابن نباته السعدي :

بدأ ابن نباته السعدي القصيدة باكيا حزينا لا يدري ما يصنع تجاه هذا الحادث الأليم الذي شاهده ، ولم يستطع دفعه فوقف عاجزا أمامه ،و هذه المصيبة التي حلت به هي موت أمه ولذا استعار دم قلبه ليذرفه على أمه التي غمرته من حنانها وأعطته من شغاف قلبها حبا وحنانا ومشاعر صادقة فقد تعاظمت المصائب ولم يستطع دفعها ولما وقف على تل زادان اشتد فزعه لهؤلاء الذين فرق شملهم الدهر وليس لهم عود إلى الدنيا فمنذ سنين وفي نفس المكان الموحش الذي دفن والده فيه تأتي المصيبة التي تحدق به وهي موت أمه التي ستجاور أباه في هذا المكان ولن يلقاها بعد اليوم وإنما موعد اللقاء سيكون يوم القيامة ولهذا أخذ الشاعر يعدد صفات أمه التي كانت به رحيمة وعطوفة فمن يحنو عليه بعدها؟!

وهذا الفقد له أثر عظيم في نفسه فقد أصبح كالطفل الذي فقد ثدي أمه ولا منجاة له من الهلاك المحقق إلا برجوعها إليه ولكن أنى له ذلك ؟! وقد كانت تتقنع بالحياء والعفاف والرضا ولكن المنية لم تتركها آمنة فاغتالتها وهي جذلة برد دور ابنها إليه حين جاءت لتزف هذه البشرى السارة لولدها سقطت من عل وعاجلتها المنية وبموتها ماتت السماحة والمجد والكرم والوفاء وهذه المصيبة من أجل المصائب التي حلت بالشاعر فزلزلت نفسه وأطاشت صوابه وكانت بمثابة الصاعقة التي نزلت به ، وكان يخشى عليها الردى ومع ذلك لم يستطع دفع الموت عنها ، وكان يتمنى ألا تموت في هذا الشهر الذي اشتد قيظه وحميت شمسه وعظم نهاره ؛ ولكن الأمور ليست بيديه فقد حم قضاؤها ولا راد لقضاء الله وكم كانت تود هذه الأم اسعاد ولدها، ولم تكن تعلم أن في هذا الحبور فزعه وهلعه، وحزنه وشقاء نفسه طيلة حياته ،ولهذا يتمنى لجميع النساء

المعولات عليها فداءها أو يصيبهن ما أصابها .ثم وجه حديثا خاصا إلى الدهر يعاتبه لأنه لم يرع له ذمامه ، ولم يصن أمه وهو الذي هادن الدهر، وقدم له من المعالي والآثار الحسنة الكثير فقد علا نجم الشاعر حتى وصل عنان السماء ؛ ولهذا ظن أنه في مأمن من عاديات الدهر ولكن الدهر لم يهادنه وخانه في أعز الناس إليه وفرق جمعه وشتت أمره وجعله في حزن دائم وهم مقيم ،ولم يعد يستمتع بأي لذة من متع الحياة، وكيف ينعم بالحياة من أودع نور حياته في الثرى ،ثم توجه بالحديث إلى عينيه اللتين أبتا أن تذرف الدمع في هذه المحنة العصيبة فهو في ذهول من هول ما نزل به ، وكثير من الناس يشبهون الشاعر في هذا الموقف فقد يصاب الإنسان بمصيبة تفقده الاتزان فيقف حيالها مشدوها لا يدري ما يصنع ولا يسعفه الدمع، ثم تحدث الشاعر عن مصرع أمه أمام عينيه، ولم يستطع أن يقدم لها شيئا يحول بينها وبين الهلاك، ولم يغن عنها شيئا ولكن موتها ترك في قلبه جرحا غائرا لا تأسوه الأيام ولا الليالي فقد كان عزيزا بأهله آمنا من تقلبات الأيام ؛ ولكنه بفقدهم صار ذليلا في قوم يعز فيهم الكلب ويضيع بينهم الصديق ، وهو غير راضٍ عن ملكهم هذا، ولم يرض بالدنية في أي أمر من أمور حياته، ثم يسلي نفسه ويعزيها فيقول لقد فقدت أصحابا وفتيانا تحت الثرى هلكوا واحدا تلو الآخر ولم أستطع إغاثتهم ؛لأن المنية عاجلتهم، وفرقت شملهم ،وكانوا كمصابيح الدجى فصاروا تحت أطباق الثرى، وخلت الأرض منهم كأن لم يمشوا على ظهرها يوما ما .

ثم يدعو الشاعر بالسقيا لقبر أمه وللقبور من حولها سقيا تدوم أبد الدهر، ولا يكدر صفوها شيء لما لهذه الأماكن من مكانة عظيمة في قلبه

؛لأنها تضم في باطنها خيرة من قومه عدت عليهم نوازل المحن فسكنوا باطن الأرض بعد أن سادوا الدنى .

أثر هذه المحنة في نفسه :

لقد تركت هذه المحنة أثرا في نفس الشاعر فأدرك حقيقة الدنيا واستوى عنده عسرها ويسرها ولم يعد يحفل بها فقد ملَّ الحياة وزهد فيها ، وأدرك أن الدنيا امرأة لعوب لا تصفو لأحد ولا تدوم على حال إلا ريثما تتحول عنه ،ورأى الناس من حوله مشغوفين بها وهم في غفلة منها لا يدرون أنها تخدعهم ليل نهار بفتنتها وزينتها ونعيمها الزائل ،وأما هو فقد خبر الدنيا وذاق من نعيمها وبؤسها وعاينها في كلتا الحالتين ، وأدرك أن وصالها كحلم النائم يكاد يصحو منه سريعا ،وعمر الإنسان فيها قصير، وعيشه فيها لا يخرج عن أمور ثلاثة : النوم ،والمرض والموت فأي نعيم يؤمله الإنسان فيها؟ !وحياته محصورة في الأمور السابقة لا يحيد عنها قيد أنملة .

ثانيا :**قصيدة الشريف الرضي** :

أبكيكِ لو نفع الغليل بدائي([1]لج)	**وأقول لو ذهب المقال بدائي(لج)**
وأعوذُ بالصبر الجميل تعزياً	**لو كان بالصبر الجميل عزائي(لج)**
طوراً تُكاثِرني الدموعُ وتارة	**آوِي إلى أُكْرُومَتي وحَيائي(لج)**

([1])ديوان الشريف الرضي ت د/ محمود حلاوي ط دار الأرقم ط الأولى سنة 1419هـ1999م ص 74 .

([2])نقع: أسكن وري ، الغليل : المصاب بالغلة وهي شدة حرارة الجوف من العطش والمراد به شدة الحزن.

([3])أعوذ : التجأ إليه وأعتصم به . تعزيا : تصبرا ، عزائي : صبري على ما ما نزل بي .

كـــمْ عـــبرةٍ موهتُهـــا بأنـــاملي ... وســـترتُها مُـــتَجَمِّلا بردائـــي
أُبْـــدِي التجلـــدَ للعـــدُوولـــودَرَى ... بِتَمَلْمُلـــي لقـــد اشـــتفى أَعـــدَائِي(لج)
مـــاكنـــتُ أُذخُـــر في فـــداكِ رغيبـــةً ... لـــوكـــانَ يَرْجِـــعُ مَيِّـــتُ بفـــداءِ(لح)
لـــوكـــانَ يَـــدفعُ ذا الحمـــامِ بقـــوةٍ ... لتكدَّســـتْ عُصَـــبُ وراءَ لِـــوائِي(لط)
بمـــدربينَ علـــى القِـــراعِ تفيئـــوا ... ظِـــلَّ الرمـــاحِ لكُـــلِّ يـــومِ لقـــاءِ(مر)
قـــومٌ إذا مرهُـــوا بأغبـــابِ السُّـــرَى ... كَحلُـــوا العيـــونَ بأثمـــدِ الظلمـــاءِ(مز)
يمشـــونَ في حَلَـــقِ الـــدِّرُوعِ كـــأنهُم ... صُـــمُّ الجلامِـــدِ في غَـــدِيرِ المـــاءِ(ين)
بِيـــــروقِ أَدْرَاعٍ ورعْـــــدِ صـــــوارمٍ ... وغمـــامُ قســـطلةٍ ووبـــلُ دِمـــاءِ(مج)

([1])أكرومة على وزن أفعولة وأمثولة : مشتق من الكرم ، والمقصود فعل الكرم .

([2])تململ : تقلب على فراشه متألما من مرض أوهم أو نحوهما ويقال تململ الجالس :أبدى قلقه بأن جثا على ركبتيه .اشتفى من عدوه : بلغ ما يذهب غيظه منه ، الجلد : الصبر على المكروه .

([3])اذخر : أصله اذدخر : خبأه لوقت الحاجة إليه ، رغيبة : العطاء الكثير .

([4])تكدست : اجتمعت ، عصب : الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير وفي التنزيل العزيز " وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولو القوة " جمع عصب .

([5])القراع : المقارعة أي المحاربة والمنازلة ، تفيئوا : من الفيء وهو الظل وتفيئوا ظل الرماح : استظلوا بها ، مدربين : مجربين .

([6])مرهوا : ابيضت عيونهم ، أخباب أسباب ، السرى : السير ليلا ، الأثمد : الكحل .

([7])الجلامد : جمع جلمد وهو الصخر ، وصمم جمع أصم ويقال صمم الجلامد أي صخور صلبة وقاسية .

فارقتُ فيكِ تماسكي وتجملي ... ونسيتُ فيكِ تعززي وإبائي

وَصَنَعْتُ ما ثَلَم الوقارَ صنيعُهُ ... مما عَرَاني من جَوَى البُرَحَاءِ(لج)

كم زفرةٍ ضَعُفَتْ فصارتْ أنةً ... تممتُها بتنفس الصُّعداءِ(لح)

لهفانَ أنزُو في حبائلِ كُرْبَةٍ ... ملكتْ عليَّ جَلَادَتِي وَغَنَائِي( )

وجرى الزمانُ على عوائدِ كيدِهِ ... في قلبِ آمالي وعكسِ رَجَائِي(بر)

قد كنتُ آملُ أنْ أكونَ لكِ الفدا ... مما ألمَّ فكنتِ أنتِ فِدائي

وتفرُّقُ البعداءِ بعدَ مودةٍ ... صعبٌ فكيفَ تفرقُ القرباءِ

وخلائقُ الدنيا خلائقُ مومسٍ ... للمنعِ آونةً وللإعطاءِ(تر)

طوراً تبادلُكَ الصفاءَ وتارةً ... تلقاكَ تُنْكِرُهَا مِنَ البغضاءِ

وتداولُ الأيامِ بيننا كما ... يُبلي الرشاءَ تداوحُ الأرجاءِ(لج)

([1])ببروق أدراع : أي دروعهم تبرق من شدة لمعانها وسيوفهم ترعد من كثرة تصادمها بسيوف الأعداء وغبار المعركة كالسحاب انتشارا والدماء تهطل كالوبل أي المطر ، القسطلة : غبار الحرب ، الوبل : المطر الغزير .

([2])ثلم : خدش ، عراني : أصابني ، الجوى : الحزن والألم ، البرحاء : الشدة والمقصود شدة الأذى .

([3])الزفر : يقال زفرا وزفيرا : أخرج نفسه بعد مدة ، الأنة : تأوها والأنة مصدر المرة ، الصعداء : المشقة ، وتنفس الصعداء نفسا ممدودا أو مع توجع .

([4]) أنزو : أتخبط ، حبائل أسباب ، الكرب : الحزن والغم يأخذ بالنفس ، جلدتي وغنائي : تصبري واكتفائي .

([5])العوائد : المعروف والصلة ، الكيد : هو مضرة الغير خفية .

([6])مومس : المرأة الفاجرة ، وخلائق المومس صفات امرأة فاجرة داعرة متقلبة لا تستقر على حال .

وكـــأنَّ طـــولَ العمـــر روحـــةُ راكـــبٍ ... قضـــى اللغُـــوبَ وجـــدَّ في الإســـراءِ(لج)

أنضـــيتِ عيشـــكِ عِفَّـــةً وزهـــادةً ... وطُرِحْـــتِ مثقلـــةً مـــن الأعبـــاءِ(لح)

مـــاكـــانَ يومـــاً بـــالغبين مـــن اشـــترى ... رغـــدَ الجنـــانِ بعيشـــةٍ خشـــناءِ

لوكـــانَ مثلَـــكِ كُـــلُّ أُمٍ بـــرةٍ ... غَنِـــيَ البنـــونَ بهـــا عـــن الآبـــاءِ

كيـــفَ الســـلُوُ وكـــلُّ موقِـــعِ لحظـــةٍ ... أثـــرٌ لفضـــلكِ خالـــدٌ بـــإزائي(لد)

فَعَـــلاتُ معـــرُوفٍ تقـــرُّ نـــواظري ... فتكـــونَ أجلـــبَ جالـــبٍ لبكـــائي

مـــامـــاتَ مـــن نـــزعَ البقـــاءَ ونكـــرُهُ ... بالصـــالحاتِ يعـــدُّ في الأحيـــاءِ

فبـــأيِّ كـــفٍّ أســـتجنُّ وأتقـــي ... صـــرفَ النوائـــبِ أم بـــأيِّ دعـــاء(بر)

ومـــن الممـــولُ لـــي إذا ضـــاقتْ يـــدي ... ومـــن المعَلِـــلُ لـــي مـــن الأدواءِ

ومـــن الـــذي إن ســـاورتني نكبـــةٌ ... كـــانَ المُـــوقِّي لـــي مـــن الأســـواء(تر)

أمـــن يلـــطُّ علـــيَّ ســـترَ دُعائـــهِ ... حرمـــاً مـــن البأســـاءِ والضـــراءِ(ير)

([1])الرشاء : الحبل ، تطاوح الأرجاء: ترامي في نواحي البئر والأرجاء : حافة البئر ، تتداول الأيام :تتابعها ،يبلينا : يهلكنا ، تطاوح : تباعد .

([2])روحة الراكب : استراحة الراكب ، قضى اللغوب :أصابه الإعياء وهو التعب ، الإسراء : السير ليلا .

([3])أنضيت :أبليت وأفنيت أراد أمضيت وقضيت .

([4])السلو : النسيان

([5])استجن : أستتر ، النوائب : المصائب

([6])ساورتني : واثبتني وأصابتني ، نكبة : مصيبة ، الموقي : الحامي ، الأسواء : السيئات .

([7])يلط يستر ويرخي الستر .

رزآن[1] يـــزدادانِ طُـــول تجـــددِ أبـــدَ الزمـــانِ فتاؤهـــا وبقـــائي (مج)

شـــهدَ الخلائـــقُ أنهـــا النجيبـــةُ بـــدليلِ مـــن ولـــدتْ مـــن النجبـــاءِ (لج)
في كُـــلِّ مظلِـــمِ أزمـــةٍ أوضـــيقَةٍ يبـــدو لهـــا أثـــرُ اليـــدِ البيضـــاءِ
ذخـــرتْ لنـــا الـــذكرَ الجميـــلَ إذا انقضـــى مـــا يذخـــرُ الآبـــاءُ للأبنـــاءِ
قـــد كنـــتُ أمُـــلُ أن يكـــونَ أمامَهـــا يـــومي وتشـــفقُ أن تكـــونَ ورائـــي
كـــم آمـــرٍ لـــي بالتصـــبرِ هـــاجَ لـــي داءً وقـــدرَ أن ذاكَ دوائـــي
آوي إلى بَـــرْدِ الظـــلالِ كـــأنني لتحرقـــي آوي إلى الرمضـــاءِ (لح)
وأهـــبُّ مـــن طيـــبِ المنـــامِ تفزعـــاً فـــزعَ اللـــديغِ نَبَـــا عـــن الإغفـــاءِ ( )
آبـــاؤكِ الغُـــرُّ الـــذين تفجـــرتْ بهـــم ينـــابيعُ مـــن النَّـــعماءِ
مـــن ناصِـــرٍ للحـــقِ أو داعٍ إلى ســـبلِ الهـــدى أو كاشـــفِ الغمَّـــاءِ
نزلـــوا بعُرعُـــرةِ الســـنامِ مـــن العُلَـــى وعَلَـــوا علـــى الأثبـــاجِ والأمطـــاءِ (بر)

([1])رزآن : مثنى رزء بضم الراء وسكون الزاي : المصيبة .

([2])يجعل الشريف الرضي أمه في مرتبة عليا فهي نجيبة لأنها ولدت نجباء ومنهم الشاعر نفسه .

([3])الرمضاء : النار .

([4])أهب : أنهض وأستيقظ ، اللديغ : الملدوغ ، الإغفاء النوم ، وفي البيت إشارة إلى عادة قديمة وهي أنهم كانوا يساهرون اللديغ فلا يتركونه لئلا يسري السم في جسمه إذا نام .

([5])عرعرة السنام : رأس السنام ، الأثباج : ما بين الكاهل والظهر ، الأمطاء: جمع مطا وهو الظهر ، يريد أنهم نزلوا في أعلى الأماكن وفي رؤسها .

مـن كـلِّ مسـتبقِ اليـدينِ إلى النَّـدى ... ومسـددِ الأقـوالِ والآراءِ

يُزجـى على النظرِ الحديـدِ تكرمـا ... ويُخَـافُ في الإطـراقِ والإغضـاءِ(لج)

دَرَجُـوا علـى أثـرِ القـرونِ وخلفُـوا ... طرقـاً مُعـبدةً مـن العليـاءِ

يـا قـبرُ أمنحُـكَ الهـوى وأودُّلـوْ ... نزفـتْ عليـه دُمُـوعُ كـل سمـاءِ

لازالَ مرتجـزُ الرعـودِ مجلجـلُ ... هَـزِجُ البـوارقِ مُجْلِـبُ الضوضَـاءِ(لج)

يرغـورُغـاءَ العَـوْدِ جَعْجَعَـةُ السُّـرَى ... وينـوءُ نَـوءَ المقـربِ العُشَـراءِ(لح)

يَقْتَـادُ مُثْقَلَـةَ الغمـامِ كأنـما ... ينهضـنَ بالعَقَـداتِ والأثْقَـاءِ( )

يهفُـو بهـا جِـنْحَ الـدجى ويسـوقُها ... سـوقَ البطـاءِ بعاصـفٍ هوجـاءِ(بر)

يرميـكَ بارقُهـا بأفـلاذِ الحَـيَا ... ويفُـضُ فيـكَ لطـائمَ الأنـداءِ(تر)

([1])النظر الحديد : أي الحاد ، الإطراق : النظر إلى أسفل، الإغضاء : إغضاء الجفنين بهدف عدم الرؤية حياء .

([2])مرتجز الرعود : متتابع الرعود ، يجلجل : يعكي صوتا شديدا وهو الرعد ، البوارق : جمع بارق وهو السحاب ، الهزج : المصوت ، الضوضاء : الضجة والمقصود أصوات الناس في الحرب .

([3])الرغاء : صوت الإبل ، العود : المسن منها ، الجعجعة : أصوات الإبل إذا اجتمعت ، ينوء : يثقل ، المقرب التي قرب ولادها ، العشراء : التي مضى على حملها عشرة أشهر ، السرى : السير ليلا .

([4])العقدات : الواحدة عقدة ما تعقد وتراكم من الرمل ، الأنقاء : الواحد نقا القطعة من الرمل ، مثقلة الغمام : السحاب المثقلة من بالمطر .

([5])يهفو بها : يحركها والضمير عائد إلى مرتجز الرعود ، البطاء جمع بطيء ، الهوجاء : الرياح الهائجة الشديدة الهبوب .

([6])البارق : البرق ، أفلاذ :جمع فلذة أصله القطعة من الكبد أو الذهب أو المعدن الثمين ، الحيا : المطر ، يفض : يفتح ، اللطائم : وعاء المسك ، الأنداء : ما يتطيب به .

مُتَحلِّباً عذراءَ كلَّ سحابةٍ ... تغدُو الجميمَ بروضةٍ عذراءِ (لج)

للؤمتُ إنْ لم أسقِهَا بمدامعي ... ووكلتُ سُقيَاها إلى الأنواءِ (لج)

لهفي على القومِ الأُولى غادرتُهُمْ ... وعليهمُ طبقُ من البيداءِ (لح)

متوسدينَ على الخدودِ كأنما ... كَرَعُوا على ظمأٍ من الصهباءِ (لخ)

صورٌ ضننتُ على العيونِ بلحظِها ... أمسيتُ أوقِرُها من البوغاءِ (بر)

ونواظرٌ كحلَ الترابُ جفونَها ... قد كنتُ أحرُسُها من الأقذاءِ

قربتْ ضرائحُهُم على زوارِها ... ونَأَوا عن الطلابِ أيَّ تناءِ

ولبئس ما تلقى بعُقرِ ديارهمْ ... أُذُنُ المصيخِ بها وعينُ الرائي (تر)

معروفكِ السامي أنيسُكِ كلَّما ... وَرَدَ الظلامُ بوحشةِ الغبراءِ (بر)

([1])متحلبا : مسيلا مأخوذ من حلب الناقة مثلا ، الجميم : مجمع الشجر أو النبات إذا غطى معه الأرض لكثافته وكثرته ، الروضة العذراء : التي لم تمتد إليها يد المذارع .

([2]) لؤمت : كنت لئيما ، والأنواء : الأمطار .

([3]) لهفي : حزني وتحسري على من فارقتهم وهم تحت أطباق الثرى ، البيداء : الفلاة والمقصود الصحراء ، الطبق : الغطاء .

([4]) كرعوا : كرع في الماء كرعا وكروعا : تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإنائه ، والكرع ماء السماء يكرع فيه يقال :شربنا القرع ، متوسدين :متكئين والوساد المتكأ ، الصهباء الخمر .

([5]) ضننت :بخلت ، بلحظها :بملاحظتها ورؤيتها ، أوقرها : أثقلها ، البوغاء: التربة الرخوة الطرية (التراب).

([6])العقر : الوسط ، المصيخ : المستمع .

([7])السامي : العالي منزلة عند الله ، الغبراء : الأرض والمعنى أن أعمالها الصالحة ستؤنس وحدتها في ظلمة القبر

وضـــياءُ مـــا قدمتِـــه مـــن صـــالحٍ ... لـــكِ في الـــدجى بـــدلُ مـــن الأضـــواءِ
إن الـــذي أرضـــاهُ فعلـــكِ لا تـــزلْ ... ترضـــيكِ رحمتـــه صـــباح مســـاءِ
صـــلى عليـــكِ ومـــا فقـــدْتِ صـــلاتِه ... قبـــل الـــردَى وجـــزاكِ أي جـــزاءِ
لـــو كـــانَ يُبْلغـــكِ الصـــفيحُ رســـائلي ... أو كـــانَ يُســـمعكِ الـــترابُ نـــدائي (1)
لســـمعتِ طـــولَ تـــأوهي وتفجعـــي ... وعلمـــتِ حُســـنَ رعَـــايتي ووفـــائي
كـــانَ ارتكاضـــي في حشـــاكِ مُســـبباً ... رَكـــضَ الغليـــلِ عليـــكِ في أحشـــائي

الرؤية الموضوعية لقصيدة الشريف الرضي:

كان لأم الشريف الرضي دور بارز في حياته" فقد عاش الرضي في أكناف أبيه وأمه منذ ولد سنة 359هـ إلى أن قبض على أبيه ، وسجن بالقلعة في فارس سنة 369هـ فحرم رعاية أبيه حتى عاد إلى بغداد سنة 376هـ ومعنى هذا أنه عاش سن الفتوة مع أمه ، وقد تعهدته وقامت على أمره وأمر أخيه بل ودفعت بهم في سبيل التعليم "(2) وقد ذكر ابن أبي الحديد " أن المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمام رأى في منامه كأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين فسلمتهما إليه وقالت له : علمهما الفقه فانتبه متعجبا من ذلك فلم تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤية دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضي وعلي المرتضي صغيرين فقام إليها وسلم عليها فقالت له : أيها الشيخ هذان ولداي قد

([1])الصفيح : الحجارة المصفحة التي توضع فوق أحجار القبر.

([2])الشريف الرضي ودراسة شعره د/ عبد الفتاح محمد الحلو القسم الأول ص 56.

أحضرتهما لتعلمهما الفقه . فبكى أبو عبد الله وقص عليها المنام وتولى تعليمهما الفقه "(1) وهذه القصة تدل على رغبة أم الشريف الرضي في تعليمه وشغفها بولديها ورعايتها لهما وتوجيههما إلى الطريق السوي والعلم ميراث الأنبياء الذي تزكو النفوس به وتعلو الهمم وترقى إلى سلم المجد والفضل ،وكان لها ما أرادت فعلى نجمهما ،وطارت شهرتهما في الآفاق، ولذا عندما أفل نجمها، وارتقت روحها إلى باريها سبحانه وتعالى عظم الخطب، وجلت المصيبة، وكثر الحنين ،وتعالت صيحات الأنين لأجل هذه الأم الرؤمة فقد كان الشريف الرضي يتمنى أن يكون فداء لها لما أولته من فضل وحب وود ورعاية، وهكذا يفعل كل ابن وفي لوالدته يكفلها برعايته في حياتها، ويئن ويتفجع لفقدها، وينثر عاطفته آهات صادقة توحي بمشاعر الفقد والألم والحزن لهذا المصاب الجلل ،ولهذا بدأ الشريف الرضي قصيدته في رثاء أمه بتسجيل موقفه أمام هذه المصيبة التي نزلت به فهو مبهوت حائر لا يدري ما يصنع أيبكي فلعل البكاء يخفف عنه عظم هذا الحادث الأليم أم يلجأ إلى الصبر فيستمسك به حتى لا يشمت أعداؤه به، وفي هذين الموقفين أجد الشاعر حائرا فمرة تغلبه الدموع، ومرة يلوذ بالحياء فيظهر التجلد الذي ترفضه نفسه ولا تطيقه ، فلقد فاجأه القدر بموت أمه ،ولم يستطع أن يدفع عنها شبح الموت الذي يتربص بالنفس الإنسانية حيثما كانت ،ولو كان الموت يدفع بالفداء ما تأخر الشاعر في فدائها ،وما عز شيئا عنها ولو كان الموت يدفع بالقوة لقاد الشاعر جيشا عرمرما ومن حوله جنود بواسل لا يرهبون الموت ولا يخشون عدوا وكل ما دار بخلد الشاعر من هواجس وخيالات تؤكد أن

(1)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج 1 ص 26 .

النفس الإنسانية تفقد صوابها إزاء الخطوب التي تعترضها، ولا تدرك ما تفعل ففي غمرات هذه المصيبة تراءت أفكار ومشاعر متخبطة توحي بهول المصيبة التي قيدت فكر الشاعر وجعلته يهذي بكلمات كلها ألم وحسرة ،ولما أفاق الشاعر من وثبات خياله أدرك أن الموت لا يدفع ،وأنه تكلم بكلام أخرجه عن حد الوقار، ثم شرع في الحديث عن أثر هذه المصيبة على نفسه فهو حريص على أن يكتم حزنه، ولكن زفرات ألمه تتصعد ،وتتحول إلى أنين يتلوه تنفس عميق يخرج من جوانح قلبه المكلوم فقد نكبه الزمن، وقلب له ظهر المجن ،وفجعه في أحن الناس عليه ،وحول حياته من سعادة وهناء إلى شقاء وتعاسة وغربة نفسية فأحوال الزمن كأخلاق المومس التي تتلون لعاشقيها فمرة تبذل لهم الود والصفاء ،ومرة تتنكر لهم وتسومهم الذل وتتربص بهم ،ويتبدل صفوها كدرا ، وهكذا الدنيا تفعل بالناس ،ثم قصد الشاعر الحديث عن صفات أمه وما انمازت به في حياتها من عفة وطهارة نفس وحياء وحب للإسلام ،وتعاليم الإسلام فهي المؤمنة الحريصة على الصيام في أيام القيظ وقيام الليل وقراءة القرآن الكريم وكل ذلك حرصا منها على السير في طريق الهدى فقد باعت الدنيا الفانية واشترت ما عند الله رغبة في جنان الخلد ، وقد ربح بيعها وفي هذه اللحظات الخالدة ودعت الدنيا لتعيش في رغد الجنان ثم جمع الشاعر بين الحديث عن صفات أمه وأثر هذه الصفات على نفسه فهو لا يستطيع أن ينساها ولو للحظة واحدة ففضلها وأثرها باق في كل شيء من حوله وأعمالها الصالحة لن تنمحي وذكراها ستظل موصولة أبد الدهر ،وقد كانت تدعو الله له في كل أمر من أمور حياته ،وترعاه بفضلها وعنايتها إذا ضاقت يده ،وإذا مسه السوء هرعت إلى الله سبحانه وتعالى راجية منه أن يخفف عن ولدها ما نزل به من ضراء ،وقد

شهد الناس لها بالفضل والمعروف ولم لا ؟ وقد أنجبت ولدين من نجباء الناس وأحسنهم خَلْقا وخُلُقا ولها أيادٍ ونعم كثيرة على من حولها، وكم كان الشاعر يتمنى أن يفديها بنفسه، ويسبقها إلى الموت ؛ لتنجو منه ولكنها جادت بنفسها ليسلم ابنها من الردى ،وقد ادخرت لأولادها خير ما يدخر وهو الذكر الجميل والأثر الحسن الذي يظل أبد الدهر وهو خير ما يتركه الآباء للأبناء . ثم شرع الشاعر في تعداد الأثر النفسي الذي خلفه موت أمه وهو ذكراها التي تتردد في خاطره مما سبب له داءً لا برء له منه ناهيك عن فزعه أثناء نومه كفزع الملدوغ الذي يتقلب على فراشه من أثر السم الذي سرى في جسده ،ويتعوذ الشاعر بالصبر ولكن الذكريات تتقاطر على خاطره؛ لتقض مضجعه فلا ينعم بالنوم، ولا يطيب له عيش، ولا يرقأ له جفن، ثم فصل الحديث عن عراقة نسب أمه التي انحدرت من سلالة المصطفى "صلى الله عليه وسلم" هذا النسب مناط فخره وعزته ولا يضاهيه نسب ،و من صفات أخواله أنهم نشروا الإسلام في أرجاء الدنيا، ومهدوا للناس طرق الهداية ،وجلُّوا لهم الشبهات ووقفوا في وجه الباطل حيثما حلوا ،وكشفوا للناس حجب الزيف ،وأماطوا اللثام عن الحقائق ، وأعطوا للفقراء كرائم أموالهم عن طيب نفس رغبة في رضا الله وبينوا للناس سنن الهدى ، فبهم اقتدى الناس وساروا خلفهم ،وتسنموا سلم المجد ،وحاذوا الفضل ،وتركوا آثارهم مبسوطة يمتح منها القاصي والداني، وتنوء الجبال عن حمل عزماتهم وتعجز الأقلام عن سرد صفاتهم فهم مصابيح الدجى تنسب إليهم كل فضيلة ويؤخذ برأيهم في كل ملمة فهم نور على نور من عطرة بيت النبوة الذين زانهم الله بكل كمال وشرفهم بنور وحيه المبين فصلوات الله وسلامه عليهم وعلى من اقتدى بهم إلى يوم الدين .

ثم دعا الشاعر بالسقيا لقبر أمه وتلك عادة درج عليها شعراء العربية وتبعهم الشاعر في ذلك إذ طلب السقيا لقبر أمه من ماء ينزل من السموات السبع إثر اهتزاز الرعد الذي يجلجل صوته فيما بين السماوات السبع والأرض ليأتي بالسحاب المحمل بالماء العذب الذي ينوء بحمله فينزل المطر معطرا بالمسك ليطيب ثرى هذا القبر الذي يحمل في داخله العفة والسماحة والندى ثم استدرك الشاعر على نفسه إذ كيف يرجو الأنواء لسقيا قبر أمه ولا يسقيه من دموع عينيه .

تأملات الشاعر أمام قبر أمه :

لقد ألقى الشاعر نظرة الوداع على قبر أمه ساعة دخولها القبر فوجدها توسدت الثرى فهاله ما جرى لها ووازن بين حالتيها قبل أن توضع في القبر وبعد أن وضعت فيه فقد كان يضن برؤيتها على الناظرين واليوم يوضع التراب فوق جبينها ويعفر وجهها به وتتكحل جفونها من تراب القبر وهذا المشهد يدعو للأسى والحزن إزاء هذه الوجوه المعطرة بالنور وفجأة توضع في حفرة ويهال عليها التراب ومما يخفف من قتامة هذا المشهد في هذا القبر الموحش ما قدمته هذه الأم من أعمال صالحة تضيء لها ظلمة القبر وهذه المعاني التي ذكرها الشاعر مستمدة من العقيدة الإسلامية الراسخة في قلوب أصحابها التي تهدهد مشاعر المسلمين الذين وعدهم الله عز وجل بجنة عرضها السماوات والأرض حيث يرون من آثار هذه الجنة في قبورهم نورا يضيء لهم ظلمة القبر ويمد لهم القبر ليحوي هذا النعيم إلى أن يلقوا ربهم يوم القيامة ثم يرسل الشاعر آخر آهاته النفسية قائلا لأمه إنني ما زلت محبا لك وستظل ذكراك حديث نفسي مادام قلبي ينبض بالحياة فقد نشأت في أحشائك وأنت في أحشاء قلبي وتلك رابطة جمعت بيننا وسيظل حزني عليك وألمي ما دمت حيا .

المبحث الثالث

الرؤية الفنية للقصيدتين :

التجربة الشعرية في قصيدة ابن نباته:

إن من أبرز الظواهر الفنية التي تتراءى للدارس في هذه القصيدة هي التجربة الشعرية الناضجة التي حفل بها المبدع وحركت مشاعره تجاه هذا الحادث الأليم الذي عاينه ولم يستطع دفعه وهو سقوط أمه من مكان عال لحظة مجيئها لتبلغه برد دوره إليه ،وهذا الحادث الأليم هو مبعث هذه التجربة التي عاشها الشاعر بعواطفه ،وجميع جوارحه، وجاءت هذه القصيدة بما فيها من ألفاظ، وصور شعرية رائعة ،وأنات وعبرات لتحكي لوعة هذا الابن تجاه فقد أمه ،وكل ما سبق ينسجم مع ما قاله النقاد حول التجربة الشعرية فهي :" انفعال بموضوع ما انفعالا يملك على الشاعر أقطار نفسه فعاشه وعايشه هذا الموضوع إما أن يكون خاصا بالشاعر فتسمى التجربة ذاتية أو يتناول هذا الموضوع أمرا مشتركا بين الناس يتصف بالعمومية تكون الإنسانية أو يكون الكون إطارها العام فتسمى تجربة عامة التقت مشاعر الشاعر فيها بمشاعر المجتمع الخاص أو العام (1) وتجربة الشاعر في القصيدة محل الدراسة من التجارب الذاتية التي عاشها الشاعر وعايشها واكتوى بنارها ولذا جاءت ألفاظه تحكي صدق مشاعره وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين نقلا عن الباهلي أنه قيل لأعرابي : ما بال المراثي أجود أشعاركم قال: لأنا نقول وأكبادنا

(1)من صحائف النقد الأدبي د/ عبد الوارث عبد المنعم الحداد ط الأولى سنة 1410 هـ 1989م ط دار الطباعة المحمدية ص 227 .

تحترق "(1) ومن مظاهر صدق الشاعر في تجربته عواطفه الصادقة ومشاعره التي تنبض بالحسرة والألم وذلك بين في قوله :

أيا دمعُ هلْ للحزنِ عندَكَ مَطْمَعُ* فما كل محزون إلى الدمع يفزع

فالمحزون قد لا يسعفه الدمع ؛لأن حزنه كامن في أعماق نفسه لا يجد له متنفسا خارج النفس ، والنفس الإنسانية عندما يباغتها القدر بأمر مفاجيء قد تبهت ولا تستطيع من هول المصيبة البكاء ، وإذا كان البكاء مؤشرا على الحزن فإن النفس المكلومة أشد قلقا من النفس المنهمرة بالبكاء، فالبكاء يخفف من شدة الفاجعة ، ويأتي البيت الثاني من القصيدة حاملا لفظة" الفناء " وهي توحي بحلول الفناء في كل شيء من حول الشاعر ؛ولهذا يستعير دم القلب ليبكي به أعز إنسانة فقدها ، ويأتي الطباق ليرسم الصورة المتناقضة ويجمع بينها في قوله : " ضرك ينفع " وذلك للدلالة على أن الضرر الناتج من البكاء يفيد في مثل هذه المواقف لأنه يخفف من غلواء الحزن وهذه الصورة وردت في قوله :

وإنْ كنتَ قدْ أفنيتَ ما آل فاستعر* دم القلبِ واعلم أنَّ ضركَ ينفعُ

ويرتبط صدق التجربة الشعرية بصدق الباعث عليها والباعث على هذه التجربة العاطفة الصادقة الصادرة من قلب مكلوم لفقد أمه أرحم الناس به وأشدهم عطفا عليه ولذا صور الشاعر جزعه على أمه بقوله :

فقدتُ كبيراً بر أُمٍ حفيةٍ* كما فقدَ الثدي المعلل مرضعُ

فقد صور حنان أمه وشدة احتياجه إليها بالمرضع الذي حياته مرهونة بأمه فإذا فقد ثدي أمه فقد حياته وذلك يوحي بمدى حاجته إلى أمه ، وأن هذا الفقد سبب له جرحا غائرا تعجز الأيام عن مداواته وقد نكر كلمة

(1)البيان والتبيين للجاحظ ج2 ص 320 .

"بر" في قوله :"بر أم " وأتبعها بكلمة " حفية " للدلالة على لطفها ورقتها واحتفالها بما يصلح أمره ويعود بالنفع عليه فهي تحبه وتحنو عليه كما تكلأ الأم رضيعها وتقوم بأمره .

ومما يدل على حزن الشاعر وخوفه من سطوة الموت الذي لم يستطع دفعه عن أمه قوله :

أخافُ عليكِ الموتَ في شهرٍ ناجر* ولم أدرِ أن الأمرَ أوحى وأسرعُ

فقد كان الشاعر يشفق على أمه ويخشى أن تموت في شهر شديد الحرارة ولكن القدر لا يدفع وجاء بغتة ولم يستطع رده فالأمر ليس بيده وإنما بيد الله عز وجل الذي يقول للشيء كن فيكون، وربما تكون هذه عادة اجتماعية مفادها أن الموت في شهور القيظ يكون أشد وطأة على المتوفى ، وليس لهذه العادة أصل في ديننا الحنيف فالموتى ينتقلون من دار إلى دار أخرى ليس فيها عمل وإنما فيها جزاء .

ومما يسجل صدق عاطفة الشاعر في تجربته قوله :

لقد فَطِنَ الدهرُ الغبي لنكبةٍ * يُذلُّ لها عبدُ العزيزِ ويَفْزَعُ

هنيئاً لهُ أني ألمتُ لصرفِهِ* وأني من أحداثهِ أتخشَّعُ

خاطب الشاعر الدهر الذي أصابه بنكبة سببت له الهلع والفزع والألم والذل بعد العز فقد كان قبل ذلك في مأمن من نوائب الدهر يلهو ويلعب ولكن الدهر كان له بالمرصاد فنكبه في أعز الناس إليه وسبب له الحسرة والحزن والتذلل أمام هذا الحادث المروع الذي قض مضجعه وأوهن عزمه.

ويبدو لي مما سبق أن التجربة الشعرية " إفضاء بذات النفس بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي

لعقيدته ويتطلب هذا تركيز قواه وانتباهه في تجربته "(1) وتبدو قوة العاطفة بارزة في قول الشاعر :

إلى أي تعليـــــــل وأي مـــــــبرة* وود نصـــــيح بعـــــد ودك أرجـــــع

ولم تبـــق في الأيـــام بعـــدك لـــذة* ولا متعـــة يلـــهو بهـــا المتمتـــع

في البيتين السابقين يتحدث الشاعر عن بر أمه به ووودها له ونصحها فمن بعدها سيبذل له الود والنصح والمحبة والبر والإحسان ؟ وقد سئم الحياة بعد موت أمه ولم يعد يحفل بأي لذة من متع الحياة ولم يعد يرى في الحياة ما يحمله على التمسك بها والإذعان لها بعد أن أصابته بجرح غائر أدمى قلبه ، وزلزل كيانه فتهاوى بعد عز وزل بعد عجز عن مجابهة الخطوب .

ثم يوجه اللوم لنفسه معاتبا إياها لأنه شهد مصرع أمه وهي تتهاوى أمامه من عل ولم يغن عنها شيئا وذلك في قوله :

شـــهدتَ فمـــا أغنيـــتَ عنهـــا قلامـــةً* وأنـــت تـــرى مـــالا تحـــبُّ وتســـمعُ

فكلمة شهدت تدل على رؤيته لما حدث لأمه وكان يقتضي هذا الشهود أن ينافح عنها ويدفع الأذى عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ ولكنه عجز عن إنقاذها وهذا ما آلام نفسه وسبب له جرحا لا يندمل ؛ لأن المشهد الذي رآه بعينيه لن يغيب عن مخيلته ما دام قلبه ينبض بالحياة وقد أكد الشهود بقوله :"وأنت ترى مالا تحب وتسمع " فقوله :"شهدت " وقوله :"وأنت ترى " تجسيد لعظم هذا الحادث الأليم وشدة وقعه على نفسه التي ترى أعز الناس تسَّاقط ولا يملك الذَّبَّ عنهم ولو بالشيء الحقير وعبر

(1)النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ط نهضة مصر سنة1996م ص 364 .

بالكناية في قوله :"وأنت ترى مالا تحب " كناية عن مصرع أمه وقوله :" وتسمع ثم حذف ما لا تحب أيضا فربما سمع من الناس أقوالا تسوؤه جراء موت أمه على هذه الشاكلة ، ولجوء الشاعر إلى الكناية للدلالة على عظم هذه الفاجعة التي يخشى التصريح بها لشدة إيلامها ووقعها السيء على نفسه .

ونلحظ مما سبق أن الشاعر صور هذه التجربة خلال مشاعره المحملة بالأسى والحزن تجاه هذه المصيبة التي حطمت نفسه فامتلأت يأسا وقد :"استغرق فيها الشاعر لينقلها إلينا في أدق ما يحيط بها من أحداث العالم الخارجي فتتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التي تتمثل في النفس أو في الفرد إزاء الأحداث التي تحيط به "(1) ومن آثار هذه التجربة في نفس الشاعر أنه زهد في الدنيا ولم يعد يحفل بخيرها أو شرها فقد استوت الأمور أمام عينيه ولم يعد يخاف من عسر الدنيا ولا من يسرها ولعل ذلك واضح في قوله :

غنيت عن الدنيا فلا أنا عسرها * أخاف ولا ميسورها أتوقع

تمل سوى آمالنا ورجائنا * وكيف يمل المطلب المتوقع

عبر الشاعر عن ضجره من الدنيا وعدم تطلعه إليها بلفظة "غنيت " وهي تعني أنه لم يعد يهتم بأي أمر من أمور الحياة، وهذا الأمر ليس من قبيل الزهد في الدنيا؛ وإنما من قبيل اليأس من الدنيا فبعد أن كان يتقلب في الحياة سادرا في ملذاتها لا يرجو خيرها ولا يخشى عسرها استبدت به الحيرة ولذا عبر عن ذلك بقوله :"تمل " ثم استثنى الآمال الخاصة بقوله سوى آمالنا ثم لجأ إلى الاستفهام في قوله : وكيف يمل المطلب المتوقع

(1)النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص 363 .

؟ وهذا اليأس الذي لحق بالشاعر شعور يحسه من أصيب بمثل مصيبته ففي أحداث الحياة ما يبعث على السأم ولو دققنا النظر في القصيدة لألفيناها تربط بين موت أم الشاعر والحالة النفسية المسيطرة عليه برباط قوي ؛ ولهذا أنهى الشاعر القصيدة وروح اليأس مسيطرة على نفسه وأبدى عدم رغبته في الحياة وذلك في قوله :

وما خير عيش نصفه سنة الكرى ونصف به يعتل أو يتفجع

وأقسم لو أعطيته متخيرا لما كنت إلا بالوثيقة أقنع

فقد قسم الحياة إلى ثلاثة مراحل لا رابع لها وهي : النوم الذي يشغل جانبا عظيما من حياة الإنسان ، والمرض يشغل جانبا آخر ، والموت الذي يلاحق الإنسان حيثما كان سواء في أعز الناس إليه أو في نفسه

التجربة الشعرية في قصيدة الشريف الرضي:

تعد التجربة الشعرية رافداً من روافد الإبداع الأدبي فبها يسمو الشعر ويكتب له الخلود وبدونها يصبح الشعر قوالب منظومة خالية من الفكر والشعور والإبداع الفني الأصيل ، والتجربة الشعرية لا تنحصر في موضوع بعينه وإنما أي موضوع يكون صالحا للتجربة ما دامت نفس الأديب انفعلت به وخالط هذا الموضوع كيانه فعاشه أو عايشه وأصبح جزءا منه وهي " حدث وجداني أو عاطفي حدث ينبع من نفس صاحبه ومن عقله ومن كل حواسه ودخائله النفسية والفكرية الظاهرة والباطنة حدث عاشه أوضح ما تكون المعيشة عاشه في تريث وبطء يتأمل فيه متنقلا من جزء إلى جزء متمهلا كمن يصعد إلى قمة جبل شامخ ... ولا بد أن تكون

واضحة المعالم متميزة الأجزاء في نفس الشاعر وكل جزء يقود إلى أخيه"(1)

والتجربة الشعرية تعد " تصويرا للتجربة الشعورية ورسما لها بالألفاظ والتراكيب المنغمة بواسطة الوزن والقافية والانتقاء اللفظي الموحى بإيقاعه وموسيقاه بحيث يكون هذا التصوير مثيرا في نفوسنا انفعالا مثلما أثير في نفس الشاعر ، أو شئيا قريبا منه ... وكل تجربة شعورية يصورها أديب تصبح ملكا لكل قارئ مستعد للانفعال بها فإذا انفعل بها فقد أصبحت ملكه وأضاف بها إلى رصيده من المشاعر صورة جديدة ممتازة "(2) والتجربة التي نحن بصدد الحديث عنها في قصيدة الشريف الرضي من التجارب الذاتية التي عاشها الشاعر وشهد نهاية أمه فقد خيم الحزن والأسى على نفس الشاعر تجاه هذا المشهد الأليم وصب تجربته الشعرية في قوالب لفظية حاكت شعوره وسجلت مشاعره أمام هذا الحدث الجلل ولذا أرى عاطفة الحزن سارية في أرجاء القصيدة من أول بيت فيها فقد بدأها باكيا حزينا مبهوتا لا يدري ما يصنع أيبكي فلعل البكاء يخفف عنه ما نزل به أو يتماسك ولا يظهر الجزع ،ويستعين بالصبر، ولكن أي صبر هذا إنه الصبر الجميل وفي غمرة هذه الحيرة التي طاش لها صوابه أراه مترددا بين حالتين متناقضتين أحدهما البكاء والجزع الشديد لموت أمه، والأخرى صورة الرجل الثابت الجأش الذي لم تهزمه الخطوب ولم تهده الحوادث ،ولذا أراه يجنح إلى الصورة الثانية فيتحلى بالصبر الجميل ففيه الكرامة والحياء وقد جسدت هاتان الصورتان عاطفة الشاعر وفكره

([1])في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ط دار المعارف ط السابعة ص 138 .

([2])من صحائف النقد الأدبي د/ عبد الوارث عبد المنعم الحداد ص 229 .

وعقله فقلبه يدعوه للبكاء وعقله يدعوه إلى التمسك بالصبر ونفسه مشتتة بين الصورتين وقد حاول الشاعر أن يصبر ويظهر التجلد حتى لا يشمت أعداؤه به وذلك باد في قوله :

أبـدي التجلـد للعـدو ولـو درى* بتململـي لقـد اشـتفى أعـدائي

فالتجلد هو قصر النفس على شيء لا ترغبه فهو مأخوذ من التفاعل بين شيئين أحدهما ترضاه النفس والآخر تبغضه وهو يميل إلى التجلد على الرغم من كرهه له ولكنه يخشى من بلوغ هذا الجزع إلى مسامع أعدائه فيبتهجون فرحا لذلك وحتى يفوت عليهم تلك الفرصة أرغم نفسه على التجلد ، وتأتي "لو" الامتناعية التي تسجل عدم علم أعدائه بما اعتراه من فزع وجزع وتقلبه على فراشه متألما لم يرقأ له جفن ولم يستقر على حالة واحدة ولو علموا بذلك لقرت نفوسهم ولكنه يخفي ذلك عنهم وتتعالى صيحات الأنين مسجلة عدم صبر الشاعر على فراق أمه وذلك في قوله :

فارقـت فيـك تماسـكي وتجملـي* ونسـيت فيـك تعـززي وإبـائي

وصـنعت مـا ثلـم الوقـار صـنيعه* ممـا عرانـي مـن جـوى البرحـاء

كـم زفـرة ضـعفت فصـارت أنـة* تممتها بتنـفس الصعـدائي

لهفـان أنـزو في حبائـل كربـة* ملكـت علـي جلادتـي وغنـائي

وجاء الفعل" فارقت " المسند إليه تاء المتكلم المقصور على الجار والمجرور في قوله " فيك " للدلالة على عظم الخطب فقد فارق أهم صفتين يتحلى بهم الرجال وقت الشدائد وهما التماسك والتجمل فالإنسان عندما تحاصره الحياة بملمة من الشدائد يتدرع بالتماسك ويتجمل بالصبر ولكن هول المصيبة أظهرت كوامن الضعف البشري متمثلا في جزعه وحزنه ونزول الهموم بساحته وقيامه بأمور تخدش الوقار ؛لأن النفس

البشرية قد تجردت من الأقنعة التي تحوطها بهالة من الوقار ،وهذه الفجيعة جردت الشاعر مما تظاهر به من تجلد وصبر وقد أسهمت حروف اللين في تجسيد هذه الآهات وجاءت الأفعال الماضية في قوله: فارقت، ونسيت ، وصنعت ، وعراني للدلالة على استحضار هذه الصور وقت معاينة تلك المصيبة وهذا يؤكد أن هذه القصيدة قيلت بعد حدوث الوفاة بمدة يسيرة والدليل على ذلك أن الشاعر يستحضر هذه الأحداث في صيغة الأفعال الماضية

وتتوالى الجمل الفعلية في النص وذلك في قوله :"أبكيك لو نقع الغليل "،" وأقول لو ذهب المقال "، "وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا" ، "وأبدي التجلد للعدو "،" ما كنت أدخر في فداك رغيبة" ، "تفيئوا ظل الرماح "، "كحلوا العيون "، "يمشون في حلق الدروع "ولعل إيثار الشاعر للجمل الفعلية في النص على الجمل الاسمية "لأن الجملة الفعلية لها قوة التأثير على المتلقي بما تحدثه فيه من حركة ذهنية نتيجة حركة الدلالة الفعلية بين الماضي والحاضر وكذلك لقدرتها على استيعاب الأحداث التي يعيشها الشاعر بكل متناقضاتها كما أنها جمل ذات قابلية للنمو والتطور في النص الشعري مما يجعلها تساير الحالة النفسية للشاعر بينما تكون الجملة الإسمية ذات طبيعة سكونية هادئة ولهذا نجد أن كثير من الدراسات الحديثة تؤكد أن الفعل هو الأكثر مركزية من باقي أقسام الكلم الأخرى" (1) وتسري عاطفة الشاعر الصادقة في جنبات هذه القصيدة

([1])بنيات أسلوبية في ديوان تغريبة جعفر الطيار ليوسف وغليس إعداد محمد العربي الأسد 2010/2009م ص45 .

لتحمل آلامه وعذابات نفسه تجاه هذه المصيبة التي نزلت به ويتصبر بالحديث عن صفات أمه وذلك في قوله :

أنضيت عيشك عفة وزهادة وطرحت مثقلة من الأعباء
بصيام يوم القيظ تلهب شمسه وقيام طول الليلة اللألاء
ما كان يوما بالغبين من اشترى رغد الجنان بعيشة خشناء

فالأبيات السابقة يسطر الشاعر فيها ما كانت تتحلى به أمه من إيمان قوي تجسد في الالتزام بتعاليم الإسلام رغبة فيما عند الله ،وهذا يدل على رجاحة عقلها وفطنتها ،وإيثارها ما يبقى على ما يفنى، وتمثل ذلك في صيامها في أيام القيظ وقيامها الليل الطويل تعبدا لله سبحانه وتعالى، وقد اشترت طيب الجنان فربح شراؤها .

وكلما تذكر الشاعر ما قدمته أمه من معروف وأياد نال منها القاصي والداني انهمرت دموع عينيه وردد أنها لم تمت ما دام معروفها ساريا وآثارها باقية وذلك في قوله :

ما مات من نزع البقاء وذكره * بالصالحات يعد في الأحياء

وقد كرر الشاعر هذا المعنى في القصيدة وذلك في قوله :

معروفك السامي أنيسك كلما * ورد الظلام بوحشة الغبراء

ومما يؤكد صدق هذه التجربة أن الشاعر عاش أحداثها واكتوى بنار الفرقة التي أضرمت في قلبه ؛ ولذا وجدناه حزينا باكيا من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها فالهموم قد تكالبت على الشاعر ولم يستطع التجلد والتصبر على الرغم من ادعائه التجلد وذلك في قوله :

أبدي التجلد للعدو ولو درى بتململي لقد اشتفى أعدائي

ويغالب الشاعر الحزن ولكن الحزن يغلبه وتتصاعد زفراته في صورة أنين يتبعه تنفس طويل حزين متمثلا في قوله :

كـــم زفـــرة ضـــعفة في حبائـــل كربـــة * ملكـــت علـــي جلادتـــي وغنـــائي

وتتعاظم المصيبة ويشتد وقعها وتتجدد بتجدد الأيام في قوله :

رزآن يـــــزدادان طـــــول تجـــــدد * أبـــد الزمـــان فناؤهـــا وبقـــائي

وألم المصيبة ووقعها النفسي يحولان بين الشاعر وبين التنعم بملذات الحياة فلم يعد يرقأ له جفن وإذا نام في بعض الليالي يصحو فزعا مستصرخا كفزع اللديغ الذي يخشى من النوم وفي ذلك يقول :

وأهـــب مـــن طيـــب المنـــام تفزعـــا فـــزع اللـــديغ نبـــا عـــن الإغفـــاء

وتتعالى آهات الشاعر وأنينه في نهاية القصيدة في صورة "لو "الامتناعية التي أخر جوابها في البيت التالي لندرك مدى التلاحم بين أبيات النص .

لـــو كـــان يبلغـــك الصـــفيح رســـائلي * أو كـــان يســـمعك الـــتراب نـــدائي

لســـمعت طـــول تـــأوهي وتفجعـــي * وعلمـــت حســـن رعـــايتي ووفـــائي

ويختم الشاعر قصيدته بهذا البيت الي يعلن فيه ملازمة الحزن له طيلة حياته وسبب ذلك أنه ركض في أحشائها جنينا وسيركض حزنها في قلبه ما دام حيا .

كـــان ارتكاضـــي في حشـــاك مســـببا * ركـــض الغليـــل عليـــك في أحشـــائي

ومما سبق يتأكد لي أن عاطفة الحزن تخللت القصيدة من أول بيت إلى آخر بيت وهذا يعني صدق هذه العاطفة وعلو نبرتها ؛لأنها خيمت على النص فألقت بظلالها على أجوائه لأنها " انبعثت عن سبب صحيح غير

زائف ولا مصطنع حتى تكون عميقة تهب للأدب قيمة خالدة " (1) وقد كان سبب هذه القصيدة موت أم الشاعر فهزته الفجيعة هزا عنيفا وفجرت كوامن مشاعره فانداحت في صورة أبيات شعرية مموسقة تحمل شعورا حيا منبعثا من نفس مكلومة في أحب الناس إليها .

الصورة الشعرية في قصيدة ابن نباته السعدي :

تعد الصورة الشعرية الأداة الفنية التي تنقل الأحاسيس والمشاعر في صورة حسية وقد اهتم الشعراء بها لأنها بمثابة " الكاميرا" التي تلتقط الأشياء التقاطا وإن كانت تخالفها في أنها تنقل المشاعر والأحاسيس والعواطف التي يحس بها الأديب ولذا يقول عنها الجاحظ :" الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير "(2) والصورة الشعرية تعد " الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة ... في معناها الجزئي والكلي فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صور جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية .. وإذن فالصورة جزء من التجربة ويجب أن تتآذر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلا صادقا فنيا وواقعيا "(3) والشاعر الحاذق هو الذي يربط بين صوره وشعوره برباط فني حميم فكل صورة تعبر عن خبيئة نفسه وهذا ما دعا إليه العقاد عندما وجه نقده اللاذع لشوقي قائلا :" وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم

([1])أصول النقد الأدبي د/ أحمد الشايب ط الثالثة ط مكتبة النهضة المصرية ص 190 .

([2])الحيوان للجاحظ ت عبدالسلام هارون ط مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط الثانية سنة 1385هـ1965م ج3 ص 132 .

([3])النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص 417 .

في نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه "(1) وأقف مع أول صورة أدبية وردت في مطلع القصيدة حيث خاطب الشاعر الدمع سائلا إياه هل للحزن عندك مطمع وذلك في قوله :" أيا دمع هل للحزن عنك مطمع ؟ وفي هذه الصورة جسد الشاعر الدمع وجعله كائنا حيا يشعر ويتكلم ويجيب وهذا التجسيد للمعنويات يكسب الصورة أثرا لا يمحى من ذاكرة متلقي العمل الإبداعي ، وتأتي الحكمة في شطر البيت الأول متمثلة في قوله :" فما كل محزون إلى الدمع يفزع ؟ لتقرر حقيقة لا تقبل المراء وهي ليس كل محزون يلجأ إلى الدمع ليخفف من غلواء حزنه واختار الشاعر ألفاظا جسدت هول المصيبة التي حلت به وهي الحزن ، وحزون ، والدمع ويفزع للدلالة على دوام الحزن واستمراره ثم يوجه الشاعر حديثه إلى الدمع في البيت التالي قائلا له :

وإن كنت قد أفنيت ما آل فاستعر* دم القلب واعلم أن ضرك ينفع

والخطاب للدمع جاء في صورة الشرط وجواب الشرط يحمل استعارة تثرِى الحوار للدلالة على أن دموع العين قد نفدت وأن الشاعر يستعير دماء القلب ليعبر بها عن هول ما نزل به ولعل حوار الشاعر مع الدمع في البيتين السابقين محاولة من الشاعر للتجلد أمام الشامتين وإيهامهم أن الخطوب لا تفت في عضده ولا تنل من عزيمته ولكن أناته وزفرات قلبه كشفت عما بصدره من حزن وقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظه وذلك واضح في قوله :" قد أفنيت " فقد دخلت قد على الفعل الماضي للدلالة على تحقق الفناء ولفظة الفناء تناسب الجو النفسي الذي يعيش فيه

(1)الديوان لمؤلفيه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني ط الرابعة ط دار الشعب ص 20 .

الشاعر فقد عم الفناء في كل شيء فناء أمه وهلاكها وفناء دموع عينيه وأما قوله :" واعلم أن ضرك ينفع " فهذه حقيقة لأن الدمع يضر ويؤذي ومع ذلك يخفف من وطأة المصيبة التي تنزل بصاحبها .

والبكاء في صدر قصائد الرثاء لازمة درج عليها الشعراء منذ العصر الجاهلي وها هي الخنساء تقدم لرثاء صخر بالبكاء في مقدمة قصائدها فمن ذلك قولها : [البسيط]

مـــاهـــاجَ حَزْنَـــكَ أمربـــالعينِ عُـــوَّارُ* أمذرفـــتْ أمخلـــتْ مـــنأهلـــهاالـــدارُ

كـــأنَّعـــينيلـــذكراهإذاخطـــرتْ* فـــيضُيســـيلُعلـــىالخـــدينمـــدرارُ(لج)

وهذا ابن الرومي يبدأ قصيدته في رثاء ولده محمد بالبكاء فيقول : [الطويل]

بكاؤكمـــايَشـــفيوإنكـــانلايُجـــدي* فجـــوداققـــدأودىنظيركمـــاعنـــدي

بُـــنيَّالـــذيأَهْدَتْـــهُكَفَّـــايَلشَّـــرَى* فَيـــاعـــزَّةَالْهُـــدَىويـــاحســـرةالْهُـــدِي(لج)

ويبدو أن الفناء لم يصب الشاعر في أمه فحسب بل في كل شيء من حياته ومصداق ذلك قول الشاعر:

تـــداعتْبـــلا طعـــنٍأنابيـــبُعـــاملي* وأصـــبحَحـــدي بالنوائـــبِيُقْطـــعُ

إن الشاعر يصور الفناء الذي لحق بسلاحه من غير حرب فقد تكسرت سهام رمحه من غير طعن وتلك مفارقة عجيبة وقد أحسن الشاعر صنعا في اختياره كلمة " تداعت " التي صورت المشهد خير تصوير حتى كأننا نراه في صورة بناء يتساقط جزءا تلو الآخر وكان من الجائز أن يقول

([1])ديوان الخنساء ت د/ إبراهيم عوضين ط الأولى 1405 هـ 1985م ط مطبعة السعادة ص 298 .

([2])ديوان ابن الرومي شرح الأستاذ أحمد حسن بسج ج1 ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص 400 .

الشاعر :" هلكت أنابيب رمحي " ولكن موقع هذه الكلمة لا يفي بتصوير هذا المشهد ومجيئه بالياء في قوله :" عاملي " يعني نسبة هذا الأمر إلى رمحه على وجه الخصوص والعربي يعتز دائما برمحه وسيفه وفرسه فهذه الأشياء عدته وقت الشدائد فبها يعتز ويفخر ويسطو على الآخرين وبغير يفقد قوته وتأتي الشطرة الثانية من البيت لتكمل الصورة التي أرادها الشاعر في شكل استعارة لتتمم المشهد الذي يعرضه وهي قوله :" وأصبح حدي بالنوائب يقطع " فالحد هو البأس والشدة والقوة وقد جعل الشاعر لقوته حدا وجعل النوائب تتسلط على هذا الحد فتقطعه وكأنه آلة من آلات الحرب أصابها الضعف وصارت تقطع بعد أن كانت تقطع ومجيء الفعل المضارع "يقطع " للدلالة على استمرار صورة القطع وكأنها بدأت ولم تنته بعد وهذا يصور عظم الفجيعة التي مني الشاعر بها، وأن آثارها انسحبت على كل شيء من حوله.

ويأتي البيت التالي؛ ليتمم المشهد، ويدل على فداحة الخطب، وعظم المصائب التي تتجدد أحداثها في قوله

نفوس على رزان ينشدها الحجى * وليس لها حتى القيامة مرجع

نكر الشاعر كلمة "نفوس " للدلالة على عظم هذه النفوس وعظم أصحابها وعلى كثرة هذه النفوس التي فقدها فموت أمه أعاد إلى مخيلته صورة نفر من أهله وذويه فقدهم وودعهم قبل ذلك في نفس المكان الذي ستوضع فيه أمه وهو تل زاذان وقد عبر الشاعر عن فقدهم بشموخ منقطع النظير في قوله :" على زاذان " وهم ليسوا على زاذان وإنما في باطن الأرض في تل زاذان، وإنما قال على زاذان للدلالة على علوهم واستعلائهم على حيز المكان، وكأنهم أحياء وهو يبحث عنهم ومما يؤكد ذلك قوله :" ينشدها " الحجى ثم تأتي الكناية في الشطر الثاني من البيت في قوله :" وليس لها

حتى القيامة مرجع " وهذا كناية عن اليأس من عودتهم إلى الدنيا مرة ثانية وهذه الكناية تعظم من أثر المصيبة في النفس .ويصور الشاعر المجد في صورة حسية يجب ويقطع في قوله :

وقبران بالزوراء أمي ووالدي* كلا طرفي مجدي يجب ويقطع

فالمجد شيء معنوي ولكن الشاعر يجسده في صورة شيء حسي يجب ويجدع ولعل اجتمع الكلمتين يجب ويجدع في صورة أفعال مضارعة للدلالة على استقصاء هذا المجد من جميع أركانه فالجب بمعنى القطع ولكن تأتي كلمة يجدع للتفصيل فقد يقطع الشيء من جانب واحد يمكن رأبه بعد ذلك وهنا تجيء كلمة يجدع لتقطع على النفس ما تتمنى وتثبت قطع المجد من جميع أطرافه .

ويصور الشاعر حنو أمه وعطفها عليه وأثر فقدها على نفسه بحال المرضع الذي فقد ثدي أمه في قوله :

فقدت كبيرا بر أم حفية* كما فقد الثدي المعلل مرضع

ولنا أن نتصور مدى التوفيق الذي صاحب الشاعر في اختيار كلماته في قوله :" فقدت ، كبيرا ، بر أم حفية ، فكل لفظة لها ايحاء في تصوير عظم هذا الفقد فقد عبر بالفعل فقدت للدلالة على عظم هذا الشيء الذي كان أمامه وفجأة غيب عنه وجاءت كلمة كبيرا نكرة لتفيد عظم هذا المفقود وتأتي كلمة "بر" نكرة مضافة إلى كلمة "أم" مع وصفها بكلمة حفية لتعظيم شأن الأم وجعل ذهن المتلقي يتصور صورا كثيرة لهذا البر الذي لم يقيد في شيء محدد فيزداد تحسر الإنسان لفقد أمه وتأتي الشطرة الثانية من البيت فنتصور خلالها حال المرضع الذي قوام حياته مرهون بثدي أمه فحياتها حياة له وموتها موت له ،وقد فقد هذا المرضع ثدي أمه فأي مصيبة حلت به ؟ وأي ضياع نزل به ؟! فحال الشاعر

كحال هذا المرضع لا أمل له في النجاة وقد نزل الهلاك بساحته كما حل بأمه ولعل تقديم المفعول به في قوله : فقد الثدي المعلل مرضع للدلالة على عظم هذا الفقد وتنكير كلمة مرضع لينصرف الذهن إلى أي مرضع في أي زمان ومكان .

وعبر الشاعر عن لحوق الموت بأمه في هذه الصورة الاستعارية البادية في قوله:

وإن المنايـــــا إذ غـــــدوت قريـــــرة* غـــدت لـــك في أثوابهـــا تتصـــنع

فقد صور المنايا جمع منية وهي الموت في صورة كائن حي تبحث عن أم الشاعر لتظفر بها وقد لبست أثوابا شتى تتصنع خلالها حتى تباغت أم الشاعر فتقضي عليها وضعف عين الفعل تتصنع للدلالة على كثرة التصنع والمراوغة لتصل إلى غايتها .

ومن الصور الجديرة بالوقوف حيالها معاتبة الشاعر للدهر وتشخيصه له في عدة أبيات تدل على الجرح الغائر الذي أصابه عقب موت أمه فقد كان يعيش في رغد من العيش آمنا من نوائب الدهر وفجأة فطن الدهر للمصيبة التي يوجهها قبالة الشاعر فاهتبلها لعلمه أن فيها ذلا للشاعر وهلاكا له ؛ ولذا عاتبه الشاعر عتاب الصديق لصديقه أنه لم يرع حقوقه ونعمه التي أسداها إلى من يحتاجها، وأنزله من علياء المجد إلى حضيض الذل والهوان، وقلب له ظهر المجن واختاله في أحب الناس إليه ،ولم يرع له فضلا ولا ذمة، ولم يرفق به ،وتلك من عوادي الدهر الذي لا يبق على أحد مهما استطال أمره وعز سلطانه واستدامت دولته وقويت شوكته، وقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظ أسهمت في رسم هذه الصورة ومكنت لها في نفوس متلقي هذا العمل الإبداعي ومن هذه الألفاظ التي تصور رضوخ الشاعر وضراعته تجاه نكبة الدهر له قوله :" نكبة ، يذل ،

يضرع ، ألمت لصرفه أتخشع ، ترديت ، أرفع ، أتمتع " والألفاظ السابقة أغلبها جاء في صورة الفعل المضارع الذي يدل على الحال والاستقبال والتجدد والاستمرار للدلالة على تضجره مما حل به ومعاناته التي لا تنمحي مهما تعاقبت الأيام والليالي .وفي ذلك يقول الشاعر :

لقد فطن الدهر الغبي لنكبة* يذل لها عبد العزيز ويضرع
هنيئا له أني ألمت لصرفه* وأني من أحداثه أتخشع
ولم ترع لي يا دهر حق نزاهتي* وترك لك الشيء الذي كنت أمنع
عسى قائم المأثور يركب صدره* إليك وما بيني وبينك أصبع
ترديت تهوى بعد ما كنت والسها* يقول المماري أي هذين أرفع
أخالك صبابا بالإقامة معجبا* وأنت على وشك التفرق مزمع
فواأسفي لم أدر أنك خائن* فكنت بأقصى لحظة أتمتع

ومن الصور الواقعية التي لم تعتمد على الخيال وإنما تنقل الواقع كما هو دون تزيد وتصور عاطفة الشاعر وحزنه على أمه لحظة وداعها وهو يلقي آخر نظرة عليها قبل أن توضع في شفير القبر إذ يقول الشاعر :

لدى وقفة لا تأمل العين نظرة* سواها ولا يرجو اللقاء مودع
إلى أي تعليل وأي مبرة* وود نصيح بعد ودك أرجع

لقد نكر الشاعر كلمة " وقفة " وجاء باسم المرة " نظرة " وأعاد لا النافية المسلطة على الفعل المضارع في قوله :" لا تأمل ، ولا يرجو" كل ذلك للدلالة على تصوير ألمه ومعاناته النفسية تجاه هذا المصاب الجلل الذي هز كيانه هزا عنيفا .

وتأتي الصورة التشخيصية لتصور الدمع بإنسان يحتاج إليه وقت الشدائد والمحن ويطلب منه النصرة والعون ،ولكنه يأبى أن ينصر الأسى ؛ ولذلك يدعو الشاعر على الدمع أن يجف ولا يذرف بعد اليوم على أي هالك .

أبى الدمع يوم الدور أن ينصر الأسى* فلا ذرفت عين ولا فاض مدمع

ويا ليته لما حكى جفوة الكرى* حكى جزعي أو كان للبين يجزع

لقد نادى الشاعر الدمع بأداة النداء "يا " يتمنى من الدمع الذي صور جفوة القبور أن ينقل جزع الشاعر لفقد أمه ، وتأتي الكناية متخللة الصورة الاستعارية لتضيف معان جديدة وتكمل الصورة الفنية وتثري النص وتلك بادية في قوله :

فما أغنيت عنها قلامة* وأنت ترى ما لا تحب وتسمع

ففي البيت السابق كنايتان هما : فما أغنيت عنها قلامة كناية عن عجزه في دفع المكروه الذي حل بأمه وهو ترديها من مكان عال وموتها وقوله:" وأنت ترى ما لا تحب وتسمع" كناية عن مشاهدته لموت أمه ، وفي البيت إيجاز بالحذف في قوله : وتسمع أي وتسمع ما لا تحب ، ولعل لجوء الشاعر إلى الكناية ليصور الفزع النفسي الذي عاينه ، ويخشى من ذكره ، وإعادة صورته ، وألحظ أن الشاعر جرد من نفسه شخصا آخر عندما قال :" شهدت " وحذف المفعول به لأنه يخشى إعادة تذكره لهذا الحادث الأليم الذي شهده ووقف حياله عاجزا فلم يفعل شئيا تجاه القدر .

ومن الصور الاستعارية في هذه القصيدة قول الشاعر :

أصاب الردى قومي بسهم أصابهم* ولم يدر رام قلبه كيف يصنع ؟

فقد صور الهلاك بالفارس الشجاع الذي أمسك بسهمه ورماه في قوم الشاعر فأصاب منهم مقتلة عظيمة على سبيل الاستعارة بالكناية وهذا التشخيص للردى ينقلنا إلى قلب الأحداث لنشاهدها وندرك آثارها التي لم

تصب قومه وحدهم وإنما انتشر صداها في نفس الشاعر وأصابه في سويداء قلبه فهو الرامي والمرمي ولم يعد يدري كيف يصنع ؟! .

ومن الصور المجازية الرائعة قول الشاعر :

وكنت دفنت العز يوم عريعر* وأيقنت أني بعده أتضعضع

فقد صور العز والمجد بشيء يدفن ولهذه الصورة أثر في نفس الشاعر الذي يشهد قومه وهم يتساقطون أمامه تساقط أوراق الشجر وهو لا يملك حيال هذا المشهد سوى العجز فبفقدهم تهديما لبنيانه القوي، وهدما لأركان مجده وإضعافا لسطوته في مجتمع يسود الناس فيه بأقوامهم .

وتأتي الصورة التشبيهية لتسهم مع بقية صور النص في عرض مشاهد قوم الشاعر وهم يرحلون عن الدنيا مخلفين الشاعر في كمد وحسرة متجسدة في قوله :

وفارقت فتيانا كأن خدودهم* متون صفاح في قنا يتزعزع

فقد شبه هؤلاء الشباب بألواح من صفاح في رماح تتحرك حركة سريعة لا تكاد تشاهدها العين ؛ وهذا يدل على تساقط أنفس هؤلاء الشباب واحدا تلو الآخر وأن المنية أسرعت نحوهم ولم ينج منهم أحد .

أشيع منهم هالكا بعد هالك* وكان الندى ألا يعود المشيع

ثم صور هلاكهم بصارخ دعاهم إلى حتفهم فلبوا دعوته وهلكوا جميعا وقد أيس الشاعر من عودتهم وقد جاءت صور النص متآذرة مع تجربته الشعرية "في معناها الجزئي والكلي فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صورة جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام

الحوادث الجزئية من الحدث الأساسي "(1) ثم صور الشاعر فقد أناس من من عشيرته وخلو الأرض منهم بهذه الاستعارة الجميلة في قوله :

أرى منهم ظهر البسيطة عاريا * وما اجتمعوا إلا لأن يتصدعوا

فقد صور خلو ظهر الأرض منهم بقوله :" عاريا " أي خاليا فبهم تزهو الأرض وتعلوا فهم نجومها الزاهرة التي بهم تشرق وبموتهم تصير الأرض متجردة من أجمل شيء فيها ثم أعقب هذه الاستعارة باستعارة أخرى في الشطر الثاني من البيت تصور سرعة اجتماعهم وهلاكهم في نفس الوقت ببناء محكم أتت عليه يد الدهر فزلزلت كيانه وتصدع وتساقط في لحظات سريعة لا تكاد تدركها العيون من شدة هولها .

وتأتي الكناية لتسهم مع الاستعارة في بناء هذه التجربة التي حشد الشاعر لها عواطفه الصادقة وزفرات قلبه الملتاعة في جو جنائزي حزين يحكي تهدم مجد الشاعر المتجسد في موت أمه ومن قبلها أبيه ومن بعدهما خيرة أهله الذين سطروا في هذه الحياة أمجادا لا تزلزلها الحوادث وإن عظمت ولا يعكر صفوها شيء وإن علا فالشجاعة والندى من الصفات التي يزهو بها العربي فهي مناط عزه ومجال فخره وقد أقامت حول بيوت قومه ولم تغادرها فهم أصحابها الذين عرفوا بها وعرفت بهم وهذه الكناية تسمى في عرف البلاغيين بالكناية عن النسبة وقد شخص الشاعر الشجاعة والندى ونسب إليهما الكلام وهو :" حبذ المتربع " والغاية من الكناية فيما سبق المبالغة في اتصاف قومه بالشجاعة والكرم فالكرم والجود ملازمان لقومه ويرتحلان معهم حيثما رحلوا وهذه الصفات تتناسب

(1)النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص 417 .

مع المقام الذي وردت فيه .وتربع المجد حول البيوت من الكنايات التي وردت في الشعر العربي القديم ومنها قول حسان بن ثابت :[الطويل]

فنحنُ الذُّرى من نسلِ آدمَ والعرا* تربع فينا المجدُ حتى تأثلا

بنى المجدُ بيتا فاستقرت عمادُهُ* علينا فأعيا الناسَ أن يتحوَّلا (1)

وابن نباته السعدي تابع حسان في ذلك فقال :

برابية الدور الشجاعة والندى* أقاما وقالا حبذا المتربع

وتأتي الكناية في البيت التالي لتصور مدى ضعف الشاعر وقومه بعد موت السادات منهم فيقول :

فمن لذباب الشر يخشى ويتقى *وللخير يرجوه الضريك المدفع

فقوله : " ذباب الشر " كناية عن التأذي من الشر وأنهم أصبحوا غير قادرين عن مجابهة الشر حتى القليل منه وذلك راجع إلى موت أبطالهم الذين بنوا أمجادا عظيمة ولكنها تهاوت بموتهم .

ومن الصور التشبيهية في النص قوله :

سقى الرائح الغادي قبورا كأنها * ظهور جمال بركت وهي ضلع

فقد شبه الشاعر القبور التي احتوت أجساد قومه بظهور جمال بركت وهي عاجزة عن القيام وفي التشبيه إيحاء بأن الأرض أصابها ما أصاب الجمال الضلع من ضعف ووهن فأصبحت غير قادرة على حمل هؤلاء القوم الذين دفنوا في ثراها .

(1)التصوير البياني د/ محمد أبو موسى ط الثالثة سنة 1413هـ 1993مط مكتبة وهبة ص 397 وينظر ديوان حسان بن ثابت ت الأستاذ عبد أ مهنا ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الثانية 1414هـ 1994م ص 207.

وتتعانق الجمل الخبرية مع الانشائية لتصور أنات الشاعر بعد رحيل أمه فلم يعد يحفل بالحياة ؛لأنه أدرك حقيقتها مع أن غيره من الناس مازال مخدوعا في بريقها الزائف ولمَّا يحل الليل على الدنيا بظلامه ووحشته يفزع الناس إلى رؤية الصباح ولهذا جاء الاستفهام في قوله :

إذا جن ليل قيل أين صباحه * وكلهم بالليل والصبح يخدع

وتأتي كم الخبرية متضمنة معنى الانشاء وللدلالة على الكثرة في قوله :

وكم من قد لبست رداؤه * وشر له كل المطالع مطلع

فكم الخبرية تدل على كثرة النعيم الذي عاش في كنفه الشاعر وجاءت كلمة النعيم نكرة للدلالة على كثرة هذا النعيم وللمبالغة في عظمه ثم تأتي الاستعارة المكنية للدلالة على تشخيص هذا النعيم في صورة إنسان له رداء يلبس وقد لبسه الشاعر مما يدل أن الشاعر كان يتقلب في النعيم غير عابئ بأحداث الحياة التي ربما تكدر عليه صفو هذا النعيم ولما عرض الشاعر في الشطرة الأولى من البيت صورة النعيم الذي لبس رداءه حينا من الدهر عرض للصورة المناقضة لهذا النعيم وهي صورة الشر ولهذا حذف كم الخبرية في الشطرة الثانية لدلالة الأولى عليها وتقدير الكلام وكم شر له كل المطالع مطلع فقد واجه الشر في كل يوم من أيام حياته وهكذا جمع الشاعر بين صورتين متناقضتين صورة النعيم الذي كان يرفل فيه ، وصورة الشر الذي كان يناوشه بين الحين والآخر وكأنه يسلي نفسه مما أحاط به من موت أمه ولهذا يدعو إلى التصبر وتحمل تقلبات الحياة التي لا تدوم فهي إما نعيم يعيش في كنفه المرء وإما شر يحيق بالمرء ويصارعه حيثما كان وعلى المرء أن يوطد نفسه ويتقبل ما ينزل به من خير أو شر فلا خير يدوم ولا شر يستمر .

ويصور الشاعر النعيم في صورة حسية متمثلة في قوله :

ومـــن لـــذة ولـــت كـــأن وصـــالها وصال خيال في الكرى حين أهجع

وقد حذف الشاعر كم الخبرية بعد الواو في قوله : ومن لذة وتقدير الكلام وكم من لذة ولت ونكر كلمة لذة للدلالة على عظم هذه اللذة وشبه وصال اللذة بالخيال الذي يراه النائم في حلمه ثم يفيق منه سريعا عند صحوه من نومه ، وهذا التشبيه له دلالة رائعة إذ يوحي بأن اللذة مهما عظمت فسريعا ما تنتهي ويفيق منها صاحبها كأن لم تكن وهذا يدل على أن متع الحياة الدنيا مهما تناهت فهي إلى زوال وعلى العاقل أن يأخذ حذره ويفيق من غفلته ولا ينخدع بنعيم الدنيا .

الصورة الشعرية في قصيدة الشريف الرضي :

إن الصورة الشعرية هي " التعبير الذي ينقل شعور الشاعر أو أفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد فهي إذن تصوير لعاطفة الشاعر وتجربته وتصوير لفكرته التي انفعل بها "(1)

والصورة الشعرية أداة فنية تسهم مع باقي الأدوات الفنية في تشكيل العمل الأدبي.

وتنقل عاطفة الأديب ومشاعره في طياتها عبر خيال محلق يؤلف بين أجزائها ويضفي على العمل الأدبي متعة التحليق في عوالم أشد رحابة واستنفارا لكوامن الفكر، وقد تأتي الصورة معتمدة على رسم الواقع كما هو دون الاعتماد على الخيال ،وأول صورة أشاهدها في قصيدة الشريف الرضي صورة جسدت الواقع ولم تعتمد على الخيال ولكنها عبرت عن

([1])أضواء على الأدب الحديث د/ أحمد محمد الحوفي ط الأولى سنة 1981 م ط دار المعارف ص 177 .

عظم الخطب وفداحة المصيبة وصورت نفس الشاعر خير تصوير وهي قوله :

أبكيك لو نقع الغليل بكائي * وأقول لو ذهب المقال بدائي

وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا * لو كان بالصبر الجميل عزائي

طورا تكاثرني الخطوب وتارة * آوي إلى أكرومتي وحيائي

كم عبرة موهتها بأناملي * وسترتها متجملا بردائي

هذه الصورة جاءت معتمدة على نقل الحقيقية ومتناسبة مع الموقف الذي حاكته فهي تنقل لنا صورة للشاعر وقت علمه بوفاة أمه وهو حائر يبكي حينا ويتذرع بالصبر أحيانا وتتكاثر دموعه فلا يستطيع دفعها حينا آخر وتارة يثوب إلى رشده ويتحصن بالحياء .

والصورة الثانية في القصيدة وردت أثناء حديث الشاعر عن دفع الموت فالموت لا يدفع بأي قوة و لا يستطيع أحد رده أو الوقوف أمامه ومع ذلك يلجأ الشاعر إلى "لو " الامتناعية التي تدل على امتناع الشرط وامتناع تحقق الجواب ومع ذلك يسبح خيال الشاعر في هذه الصورة ؛ليؤكد أن الموت لو يدفع بالقوة لقاد جيشا عرمرما ومعه فوارس مدربون على القتال يستظلون من حر الشمس تحت ظل رماحهم ،ولا يرهبون الموت، ويجدون في السير نهارا وليلا لا يحول دونهم شيء ويلبسون دروعا من الحديد ويتحركون في كل مكان والغبار يتطاير من حولهم منتشرا في السماء، ودماء أعدائهم تروي الثرى .وهذه الصورة الكلية كان من الممكن أن يختصرها الشاعر ؛ ولكنه استطرد في عرض هذه الصورة ووصف جزئياتها وهذا يذكرنا بزهير بن أبي سلمى الذي كان يستقصي صوره حين" يعتمد في وصفه على التفاصيل ، وأن يعطي كل جزء حقه فهو

باحث محقق ، وهو يطلب في شعره أن يكون أكثر بيانا ودقة وتفصيلا لما يتحدث عنه ويحاول أن يصوره فهو من الشعراء المصورين الذين يحاولون عرض المناظر بكل أجزائها وتفاصيلها "(1) والصورة السابقة جمعت عناصر الصورة من حركة بدت في قوله :" بمدربين على القراع " و" مرهوا بأغباب السرى "،" يمشون في حلق الحديد " و " غدير الماء " والصوت جاء في قول الشاعر :"ببروق أدراع ، ورعد صوارم ، واللون ظهر في قوله :" كحلُّوا عيونهم بأثمد الظلماء " وهذه الصورة الكلية تحمل في داخلها صورا جزئية تسهم في بناء الصورة الكلية لتجسدها فقد شبه صلابة هؤلاء الجنود بصلابة الصخور ، وشبه حلق الحديد بغدير الماء ، وغبار المعركة بالسحاب ، والدماء التي تساقط بالمطر ، وذلك في قوله :

لوكان يدفع ذا الحمام بقوة * لتكدست عصب وراء لوائي
بمدربين على القراع تفيئوا * ظل الرماح لكل يوم لقاء
قوم إذا مرهو بأغباب السرى * كحلوا العيون بإثمد الظلماء
يمشون في حلق الحديد كأنهم * صم الجلامد في غدير الماء
ببروق أدراع ورعد صوارم * وغمام قسطلة ووبل دماء

ويعلق محقق الديوان الدكتور / يوسف شكري على هذه الأبيات فيقول :" في الأبيات الخمسة الأخيرة يعمد الشاعر إلى الاستطراد ناسيا أو متناسيا المناسبة ليعود من ثم إلى الرثاء " (2) وأرى أن الشاعر استطرد في رسم الصورة السابقة ؛لأنها تتفق مع ما يدور بداخله فلقد كان يتمنى أن يدفع

(1)الفن ومذاهبه في الشعر العربي د/ شوقي ضيف ط دار المعارف ص12.
(2)ديوان الشريف الرضي ت د/ يوسف شكري فرحات ط الأولى سنة 1415هـ 1985م ط دار الجيل بيروت ج1 ص 28 .

الموت عن أمه بكل ما يملك وقاده خياله الشعري إلى هذه الصورة لعلها تخفف شيئا يسيرا من هذه الفاجعة ثم يرتد الشاعر إلى عالمه الواقعي مدركا أن الموت لا سبيل إلى دفعه ويعود إلى ما كان فيه من أسى وحزن، وتأتي الصورة الجزئية المتمثلة في الاستعارة بالكناية لتسهم في تصوير الحالة النفسية للشاعر وذلك في قوله :

وجرى الزمان على عوائد كيده * في قلب آمالي وعكس رجائي

فقد أسند الفعل "جرى " إلى الزمان " ثم أتى بكلمة عوائد جمع عائدة وهذا يدل على عظم هذه العوائد ونسب الشاعر هذه المصيبة التي نزلت به وهي موت أمه إلى الزمن إذ شخص الزمن إنسانا يكيد له فيقلب أمانيه ،ويأتي بعكس ما كان يرجو فقد كان يتمنى أن يقدم نفسه فداء لأمه، ولكن الزمن بدد أمانيه وكاد له في أعز الناس إليه، وهذه الاستعارة المكنية المعتمدة على التشخيص مكنت الشاعر من الربط بين أبيات القصيدة فجاء البيت التالي متمم معنى هذا البيت وذلك في قوله :

قد كنت آمل أن أكون لك الفدا مما ألم فكنت أنت فدائي

وفي هذا البيت لجأ الشاعر إلى ضرورة شعرية وهي قصر الاسم الممدود في قوله :"الفدا" والمقصود الفداء وهذا القصر ضرورة تجوز للشعراء لأنها من الضرورات المستحسنة ، ويأتي التشبيه البليغ المحذوف الوجه و الأداء في قول الشاعر :

وخلائق الدنيا خلائق مومس * للمنع آونة وللإعطاء

ويفصل الشاعر هذا التشبيه فلم يقل وخلائق الدنيا خلائق مومس ويقف عند هذا الحد وإنما يفصل هذه الأخلاق من خلال الطباق الذي أظهر الضدين مجتمعين في صورتين متناقضتين وهما والمنع والإعطاء وفصل

هاتين الصورتين في البيت التالي ليزيد الصورة وضوحا على وضوح وهذه مزية تتمثل في الذكر الشيء مجملا ثم يأتي التفصيل فتتلقفه النفس مستمتعة به وذلك في قوله :

طـــورا تبادلـــك الصـــفاء وتـــارة* تلقـــاء تنكرهـــا مـــن البغضـــاء

ويأتي التشبيه رافدا من روافد الصورة الجزئية في قوله :

وتـــداول الأيـــام يبلينـــا كمـــا* يبلـــي الرشـــاء تطـــاوح الأرجـــاء

فقد أسند فناء الإنسان إلى كر الأيام والليالي وصوره بتشبيه من البيئة البدوية وهو حبل الدلاء الذي يستسقى به من البئر يفنى بكثرة رميه في جوانب البئر وهذه الصورة التشبيهية تدل على أن يد الفناء تطول الأحياء والجمادات وهذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا ،وعلى العاقل ألا يغتر بأي شيء فكل شيء مصيره إلى الفناء ،وكأن الشاعر يعزي نفسه بذلك .

ويأتي التشبيه ليصور قصر عمر الإنسان بروحة الراكب في قوله :

وكـــأن طـــول العمـــر روحـــة راكـــب* قضـــى اللغـــوب وجـــد في الإســـراء

فقد عبر الشاعر خلال التشبيه عن قصر عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا بروحة الراكب وجاءت كأن في صدر البيت لتدل على قرب المشبه من المشبه به و لتختزل عمر الإنسان في وقت قصير لا يكاد يشعر بمروره فهو مثل مسافر أعياه جهد السفر فنزل في ظل شجرة ليستريح بعض الوقت حتى يكمل سفره ثم تركها وارتحل .

وقد يأتي التشبيه لتصوير الحالة النفسية التي صار إليها الشاعر إثر رحيل أمه

آوي إلى بـــــرد الظـــــلال كـــــأنني* لتحرقـــــــي آوي إلى الرمضـــــــاء

وأهـــب مـــن طيـــب المنـــام تفزعـــا* فـــزع اللـــديغ نبـــا عـــن الإغفـــاء

فقد صور لجوءه إلى الظل بمن يلجأ إلى الرمضاء ومن يفكر في برد الظلال وحرارة الرمال يلحظ الفرق بين هاتين الصورتين المتناقضتين ويدرك مدى المعاناة النفسية التي يعيش في كنفها الشاعر .

ويصور الشاعر فزعه أثناء نومه بفزع اللديغ الذي يخشى من سريان السم في جميع جسده وعلينا أن نتصور حال اللديغ وحال هذا الشاعر حتى يتبين لنا مدى المعاناة التي اكتنفته جراء موت أمه .

ويدعو الشاعر لقبر أمه بالسقيا وتلك عادة دأب عليها الشعراء منذ العصر الجاهلي وما زالت تحيا في نفوس الشعراء في العصر العباسي وقد عرضها الشاعر في صورة كلية حوت في داخلها صورا جزئية فقد تمنى للقبر السقيا من السماوات العلى خلال رعد مجلل متتابع له صوت شديد يحرك السحاب حيثما يشاء ،وله صوت كصوت الإبل المجتمعة التي مضى على حملها قرابة عشرة أشهر فهي ترغو، وهذا الرعد يسوق السحاب، ويفتح أبواب السماء فيهطل المطر وينزل على قبر أمه وهو محمل بأوعية من المسك فيزيد القبر هناءة وحبورا ويعطره بأريج من الفرحة والبهجة ،وتلك غاية ما يتمناه الشاعر لقبر أمه وفي هذا يقول :

يـــا قـــبر امنحـــه الهـــوى وأود لـــو نزفـــت عليـــه دمـــــوع كـــل سمـــاء
لا زال مرتجـــز الرعـــود مجلجـــل هـــزج البـــوارق مجلـــب الضوضـــاء
يقتـــاد مثقلـــة الغمـــام كأنمـــا ينهضـــن بالعـــقـــدات والأنـــــقاء
يهفـــو بهـــا جـــنح الـــدجى ويســـوقها ســـوق البطـــاء بعاصـــف هوجـــاء
يرميـــك بارقهـــا بـــأفلاذ الحيـــا ويفـــض فيـــك لطـــائف الأنـــداء
متحليـــا عـــذراء كـــل ســـحابة تغـــدو الجمـــيم بروضـــة عـــذراء

جاءت الصورة السابقة مشتملة على عناصر الصورة من لون وصوت وحركة فالصوت جاء في قوله : مجلجل ، وهزج البوارق ، والضوضاء ، والرغاء ، والجعجعة ، وجاءت الحركة في قوله :يهفو بها ، والهوجاء وهي الريح التي تقتلع البيوت ، واللون جاء في قوله : الأنداء ، والمطر ، وصورة البرق، والروضة العذراء ، وهذه الصورة لو قدر لرسام أن يرسمها كما رسمها الشاعر بعدسته الاقطة لرسمها صورة فيها الحس والحركة والشعور الحي النابض بالحب .

الموسيقا في قصيدة ابن نباته السعدي :

إن موسيقا هذا النص متجاوبة مع تجربة الشاعر التي تصور ألمه وحزنه الذي ينساب عبر الكلمات التي اختارها بعناية فائقة لتجسد آهاته ، وتصور مشاعره المتدفقة عبر أنغام بحر الطويل بما فيه من حركات وسكنات تتناسب مع زفرات الشاعر وذلك ؛ لأن الموسيقى في البيت الشعري " تابعة للمعنى والمعنى يتغير من بيت إلى آخر حسب الفكر والشعور والصورة والمدلول عليها" (1) والكلام السابق يعني أن الموسيقى تسهم في بناء التجربة الشعرية وتعبر عن عاطفة الشاعر أيما تعبير ولعل اختيار الشاعر لقالب بحر الطويل الموسيقي لأن هذا البحر ذا التفاعيل الكثيرة يصلح لهذه الجربة " لاتساع مقاطعه وكلماته لأناته وشكواه "(2) وتفعيلات بحر الطويل كما وردت في هذه القصيدة

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

([1])النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص 437 .

([2])السابق ص 441 .

عروض القصيدة وضربها مقبوضان (1) والصورة التي بني عليها البحر هي الصورة الأولى وبحر الطويل " سمي طويلا لمعنيين أحدهما : أنه أطول الشعر لأنه ليس في الشعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفا غيره ، والثاني أن الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد والأسباب بعد ذلك والوتد أطول من السبب فسمي لذلك طويلا "(2) وبحر الطويل من البحور التي تتسم "بالجلالة والنبالة والجد ولو قلنا أنه بحر العمق لاستغنينا بهذه الكلمة عن غيرها ؛لأن العمق لا يمكن أن يتصور بدون جد وبدون نبل وجلالة وما يتعمق إلا وهو جاد أيا كان ما تعمق فيه ولهذا فإنك لا تجد قصائد الطويل الغرر إلا منحوا بها نحو الفخامة والأبهة من حيث شرف اللفظ وهدوء النفس واستشارة الخيال وتخير المعاني "(3)

ويبدو لي أن الشاعر كتب هذه القصيدة بعد أن هدأت نفسه ولذا صبها في قالب بحر الطويل ومما يؤكد ذلك قول أحد النقاد :"إن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم مع سرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية ومثل هذا الرثاء الذي قد ينظم ساعة الهلع والفزع لا

([1])القبض هو: حذف الخامس الساكن من مفاعيلن فتصير إلى مفاعلن ويلزم القبض في كل أبيات القيدة إلا عند التصريع ينظر كتاب في علمي العروض والقافية د/ أمين علي السيد ط دار المعارف ط الرابعة سنة 1990 م ص95.

([2])الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي ت الحساني حسن عبد الله ط مكتبة الخانجي بالقاهرة ص 22 .

([3])المرشد إلى فهم أشعار العرب د/ عبد الله الطيب ط دار الفكر ط الثانية سنة 1970 م ببيروت ج1 ص 381 .

يكون عادة إلا في صورة مقطوعات قصيرة لا تكاد تزيد أبياتها على عشرة أما تلك المراثي الطويلة فأغلب الظن أنها نظمت بعد أن هدأت ثورة الفزع واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر "(1)

ولعل كثرة مقاطع بحر الطويل لتستوعب حالات الجزع والأنين والشكوى من نوازل الدهر التي فجعت الشاعر في أقرب الناس إلى قلبه وهي أمه التي شاهد مصرعها ولم يستطع أن يفعل شيئا وقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن صورة بحر الطويل المقبوض العروض والضرب من " أكثر صور بحر الطويل شيوعا وأحبها إلى النفوس وأقبلها في الأذن "(2) هذا فضلا عن أنها عبرت عن زفرات الشاعر تجاه موت أمه وقد وفق الشاعر في الوقوع على البحر المناسب لتجربته .

القافية :

تعد القافية جزء من الوزن الشعري وهي " لا تنفصم منه إذ تمثل قضاياها جزءا من بنية الوزن الكامل تفسر من خلاله وتفسره فهما وجهان لعملة واحدة " (3)

ولأهمية القافية في الشعر العربي قال بعض الأعراب لبنيه :" اطلبوا الرماح فإنها قرون الخيل وأجيدوا القوافي فإنها حوافر الشعر أي عليها جريانه

([1])موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ط السابعة سنة 1977 م مكتبة الأنجلو المصرية ص 177 .

([2])السابق ص 62 .

([3])القافية تاج الإيقاع الشعري د/ أحمد كشك ط المكتبة الفيصلية مكة المكرمة ص 9 .

واطراده وهي موافقة فإن صحت استقامت جريته وحسنت مواقفه ونهاياته"(1)

وهكذا تنبه العرب إلى أهمية القافية ؛لأنها مدار استقامة البيت الشعري فبصلاحها يستقيم الوزن وبفسادها يفسد سائر البيت الشعري وحتى تؤدي القافية دورها المنوط بها لا بد أن تكون جزءا " لا يتجزأ من المعنى بحيث لا نشعر أن البيت مجلوب من أجل القافية بل تكون هي المجلوبة من أجله ولا يؤتى بها من أجل إكمال البيت وإتمامه بل أن تأتي ملتحمة بالمعنى المراد فيكون معنى البيت مبنيا عليها ولا استغناء له عنه "(2) والقافية من حيث اختيار حروفها لا بد أن تكون " عذبة الحرف سلسة المخرج "(3) وقافية القصيدة التي أقوم بدراستها عينية ومطلقة ومعنى ذلك أن ضمة حرف الروي في قول الشاعر " يفزع " يعطي واوا تسمى وصلا و بهذا تكون القصيدة التي حرف رويها متحركا "مطلقة "والاطلاق يسهم في بناء موسيقى القصيدة لأن القافية المطلقة " تساعد على اطفاء إيقاع موسيقي للقصيدة إذ تمثل نهاية موجة إيقاعية ثم يبدأ بعدها البيت بمرتكز جديد أو موجة جديدة تنتهي عندها القافية المطلقة "(4) وحرف

([1])منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني ت محمد الحبيب بن خوجة ط الثالثة ط دار الغرب الإسلامي ص 271 .

([2])عضوية الموسيقى في النص الشعري د / عبد الفتاح صالح نافع ط مكتبة المنار ط الأولى سنة 1405 هـ 1985 م ص

([3])نقد الشعر لقدامة بن جعفر ت د/ محمد عبد المنعم خفاجي ط الأولى سنة 1398هـ 1978م الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ص 86.

([4])الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية د/ كريم الوائلي ط دار العالمية ص 277 .

العين من الحروف التي يكثر مجيئها رويا في الشعر العربي وهي من الأصوات " المتوسطة بين الشدة والرخاوة ولعل السر في هذا هو ضعف ما يسمع لها من حفيف إذا قورنت بالغين وضعف حفيفها يقربها من الميم والنون واللام ويجعلها مثل هذه الأصوات أقرب إلى طبيعة أصوات اللين والعين صوت مجهور مخرجه وسط الحلق "(1) ومجيء حرف العين رويا وتكراره في هذه القصيدة يتناسب مع تجربة الشاعر التي اتشحت بالحزن وازدانت بالألم والأنين وعاديات الدهر التي أنهكت الشاعر وصوت العين الذي يتوسط بين الشدة والرخاوة يتناسب مع حالة الشاعر النفسية التي تتردد بين هول المصيبة التي أصابتها وبين تصبره وتجلده خوفا من شماتة الشامتين وعبس العابسين وقد تساوقت موسيقا القافية مع حالات الشاعر النفسية فجاءت نغمة صوت " العين " مع ضمتها التي تحكي حرفا آخر هو الواو والمسماة في عرف العروضيين بالوصل لتوحي بأن حزن الشاعر موصول في نفسه لا تخفف من حدته هذه الألفاظ التي تحكي تجربة الشاعر .

الموسيقا الداخلية :

إن الموسيقا في الشعر ذات شقين هما : موسيقا خارجية وتتمثل في الوزن والقافية وموسيقا داخلية تنبع من داخل النص الشعري بما يحمل من أصوات متقاربة في المخرج ومن ألفاظ متجانسة بجوار بعضها البعض ومن جمل متقابلة تشد من أذر البعض الآخر لتضفي على النص الشعري بهاء وعذوبة واللغة العربية بما تملك من بحور زاخرة معطرة بأريج الكلمات الموسيقية تحتاج إلى الموهوبين الذين يبحرون في عوالمها

(1)الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ط مكتبة نهضة مصر ص 75 .

ليعودوا بكنوز مطمورة في أرجائها وقد أدرك العقاد بذوقه الفني هذه الخاصية في اللغة العربية فقال :" إنها لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء "(1)

وتقوم الموسيقا الداخلية على عدة أشياء منها " اختيار الشاعر لألفاظه وتفاعل الألفاظ مع بعضها وتأليفها في صورة صوتية معينة فتحس حين قراءة فنه أن الشاعر يرجع نغما داخليا في أعماق وجدانه ... وهي متعلقة بما يتكون منه البيت الشعري من حروف وحركات وكلمات ومقاطع وجمل والعلاقات الناشئة بين تلك المكونات التي يعمد الشاعر إلى خلقها باعتماد أساليب وأشكال متعددة استنادا إلى موهبته وخبرته ومهاراته وذائقته الموسيقية واللغوية "(2)

موسيقا الحروف :

التكرار :

إن التكرار يعد من الظواهر الجمالية التي تكسب القصيدة جرسا موسيقيا تلذ له النفس وتصغي له الآذان فضلا عن المعاني الإضافية المستوحاة من ذلك التكرار وحتى نصل إلى هذه الغاية المبتغاة لا بد أن يكون " تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة أكسب تكرار صوته ذلك الكلام إيقاعا

([1])اللغة الشاعرة عباس محمود العقاد ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ص 11 .

([2])شعر بشر بن أبي حازم دراسة أسلوبية رسالة (ماجستير) إعداد سامي حماد الحمصي ط سنة 1428 هـ 2007 م ص 244 .

مبهما يدركه الوجدان السليم حتى عن طريق العين فضلا عن إدراكه السمعي بالأذن وأقول على أبعاد متقاربة تفاديا للإكثار المفسد والتباعد الذي يفقد التكرار قيمته الصوتية الناشئة عن سرعة التردد إن التكرار المتزن نوع من الوزن والوزن ـ كما شبهه ريتشارد ـ إذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية اشبه ما يكون بالخميرة فالخميرة في حد ذاتها عديمة القيمة .. ومع ذلك فهي تضفي على الشراب الذي تمتزج به روحا وحيوية "(1)

وأقف أمام مطلع قصيدة ابن نباته السعدي الذي يقول فيه :

أيا دمع هل للحزن عندك مطمع فما كل محزون إلى الدمع يفزع

إن من ينعم النظر في البيت السابق يلحظ أن صوت العين تكرر خمس مرات وذلك في الكلمات الآتية : دمع ، عندك ، مطمع ، الدمع ، يفزع ، وصوت العين من الحروف الحلقية التي تخرج من وسط الحلق وهي مناسبة لحالة الشجن والحزن المسيطرة على جنبات النص فضلا عن الجو الموسيقي المنبعث من تكرار هذا الصوت على أبعاد متقاربة وقد وصف علماء اللغة هذا الصوت بالتوسط بين الشدة والرخاوة " ويرجع ذلك لإحساسهم بذلك فكأنهم لاحظوا فيها جانب من الشدة وجانب من الرخاوة ومن ثم فوصفهم هذا دقيق جدا "(2)

وقد قمت بإحصاء عن وجود صوت العين على مدار القصيدة كلها فوجدته قد تكرر أربعا وعشرين ومئة .

([1])التكرير بين المثير والتأثير د/ عزالدين علي السيد ط دار الطباعة المحمدية ط الأولى سنة 1398هـ 1978م ص 41 .

([2])صوتيات اللغة العربية د/ البسيوني عبد العظيم البسيوني ط الأولى سنة 1422هـ 2001 م ص 56.

ومن تكرار الحرف تكرار صوت الغين في قوله :" غدوت ، وغدت ، وتكرار صوت التاء في قوله تتصنع وهذه الأصوات المكررة لها وقعها الموسيقي الذي تلذ له الأذن وذلك في قوله :

وإن المنايـــا إذا غـــدوت قريـــرة* غـــدت لـــك في أثوابهـــا تتصـــنع

وكلمة قريرة توحي بالاطمئنان والسكون الذي لا يكدر صفوه شيء وتكرار صوت الراء مع الفصل بينه بحرف الياء واللسان عندما ينطق بالراء يضرب في اللثة ضربات سريعة متكررة يستريح اللسان قليلا من ذلك بالفصل بين الراءات بالياء ، وقد لحظ أحد الدارسين أن صوت الراء يأتي كثيرا متماثلا " وصوت الراء وإن لم يكن مهموسا فهو من أكثر الأصوات استخداما معزولا متماثلا ولا شك أن ما في عملية اخراج هذا الصوت من الجهاز الصوتي من تكرير تقتضيه طبيعة الصوت ومميزاته اللغوية الأصيلة يزيد تقوية ترديده في البيت من الشعر "(1) وكلمة " تتصنع " بصيغتها هذه تحكي المعنى وتصوره وكأننا نراه خلال هذه الكلمة فالتصنع البادي في حروفها يحكي معناها مشاهدا مرئيا خلال التردد بين هذه الأصوات المتكررة .

ولعل تكرار صوت الراء في الكلمات الآتية :وقبران ، بالزوراء ، طرفي ، يصور جو الحزن والأسى من جراء مشاهدة الشاعر لقبر أمه وأبيه وقد تجاورا تحت أطباق الثرى إعلانا عن موت مجد الشاعر وذلك في قوله :

وقبـــران بـــالزوراء أمـــي ووالـــدي * كـــلا طرفـــي مجـــدي يجـــب ويجـــدع

([1])خصائص الأسلوب في الشوقيات بقلم محمد الهادي الطرابلسي ط المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية سنة 1981م ص 56 .

وتكرار حروف الصفير يساهم في البناء الموسيقي للقصيدة وذلك في قوله:" النساء ، السوء ، ضاجعنها ، تضجع ، فصفير السين مع استطالة الضاد وتكرار كلا منهما يوحيان بامتداد المصيبة ويتوافقان مع أصوات المعولات اللائي حللن في المكان بحلول المصيبة فيه ولذا صدر الشاعر بيته بقوله :"فليت " وهي للتمني والتمني شيء محبوب إلى النفس ولكن لا يرجى تحقيقه وأما المتمني فهو فداء أمه من شبح الموت أو رقود هؤلاء النسوة اللائي يبكينها معها في قبرها وهذه الأمنية كما نرى عزيزة المنال ولكنها جاءت موافقة لما في شعور الشاعر معبرة عما بداخله من حرارة الفقد وذلك في قول الشاعر :

فليت النساء المعولات فدينها من السوء أوضاجعنها حيث تضجع

وتأتي السين متجاورة مع حرف الصاد في قول الشاعر "يستصرخنني " وصفير السين مع صفير الصاد يحكيان هول المصيبة ويتوافقان مع نبرة الاستصراخ الصادرة من هؤلاء النسوة اللائي يدعون الشاعر لإنقاذ أمه وتأتي الإجابة في صورة الاستفهام الإنكاري الذي عممه الشاعر على الناس كلهم ليثبت خلاله عجز جميع الناس عن دفع الموت أو الوقوف في سبيله وهو واحد من الناس يعتريه ما يعتريهم ويصيبه الضعف والعجز كما أصابهم وقد جسدت كلمة يستصرخنني الحالة النفسية لهؤلاء النسوة وحاكت أصوات الكلمة الحالة التي كن عليها لحظة الاستصراخ " والمحاكاة الصوتية ـ إذن ـ واحدة من طاقات كثيرة تمتلكها اللغة في

التعبير والإيحاء وإبداع الدلالة حيث يتجسد المعنى ويتصوره المخاطب لحظة سماعه للمنطوق "(1)والكلمات السابقة جاءت في قول الشاعر :

عشـــــية يستصـــــرخنني لـــــدعائها* وهـل يـدفع النـاس الحمـام فـأدفع

ومن الأصوات التي تكررت لتحكي الأسى والحزن والألم صوت النون فقد تكرر خمس مرات في هذا البيت

فـــوا أســـفي لم أدر أنـــك خـــائن* فكنـــت بأقصـــى لمحـــة أتمتـــع

فالنون المضعفة في قوله :"أنك ، وخائن ، فكنت ، والتنوين في خائن ، ونون التنوين في لمحة، وتكرار النون والتنوين في هذا البيت يضاعف من جودة الموسيقى الداخلية ويوحي بالانهزام الداخلي فعندما يأمن الإنسان من تقلبات الدهر ثم يباغته الدهر بما لا يتوقعه تكون الحسرة عندئذ وقعها أليم .

تكرار الكلمة :

قد يكرر الشاعر كلمات بعينها لغرض ما في نفسه ولكن هذا التكرار يسهم في بناء الموسيقا الداخلية للنص وخاصة إذا جاء على أبعاد متناسبة فهو عنصر فعال إذا جاء في موضعه ومن تكرار المصدر واسم المفعول في بيت واحد قول الشاعر :

أيـــا دمـــع هـــل للحـــزن عنـــدك مطمـــع فمـــا كـــل محـــزون إلى الـــدمع يفـــزع

فقد كرر " الحزن " وهو مصدر للفعل حزن وكرر اسم المفعول محزون وهذا يدل أن الشاعر محترق الجوى مفعم بالألم جراء فقد أمه .

ويتكرر الفعل الماضي في قوله غدوت وغدت في قوله :

(1)الأسلوب والخطاب الشعري الشريف الرضي نموذجا محمود أحمد الطويل ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ص 123 .

وإن المنايـــــا إذ غـــــدوت قريـــــرة* غـــدت لـــك في أثوابهـــا تتصـــنع

ويتكرر الفعل المضارع في قوله: "يدفع ، و فأدفع " وكلمة أمل ويمل في قوله :

تمـــل ســـوى آمالنـــا ورجائنـــا* وكيـــف يمـــل المطلـــب المتوقـــع

ومما سبق ألحظ أن التكرار شكل ظاهرة أسلوبية لها أثرها في بنية القصيدة من الناحيتين اللفظية والموسيقية ، وأن هذه الألفاظ المكررة لها وجاهتها وأثرها في نفس المبدع والمتلقي على السواء وهي رافد من روافد بناء النص الأدبي ولا سيما أن مقام الرثاء يطلبها .

الموسيقا في قصيدة الشريف الرضي :

تعد الموسيقا عنصرا هاما من عناصر البناء الفني للقصيدة ، وتسهم في بناء التجربة الشعرية والموسيقا لها وقع في الأذن وأثر في النفس وتقوم الموسيقا على عنصرين هما الوزن والقافية وقد اختار الشريف الرضي موسيقى قصيدته على أنغام بحر الكامل وسمي كاملا ؛" لتكامل حركاته وهي ثلاثون حركة ليس في الشعر شيء له ثلاثون حركة غيره والحركات وإن كانت في أصل الوافر مثل ماهي في الكامل فإن في الكامل زيادة ليست في الوافر وذلك أنه توافرت حركاته ولم يجيء على أصله والكامل توفرت حركاته وجاء على أصله فهو أكمل من الوافر فسمي لذلك كاملا"(1) وتفعيلات بحر الكامل هي :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

(1)الكافي في العروض والقافية للخطيب التبريزي ص 58.

والقصيدة مصرعة (1) وعروضها وضربها مقطوعان تصير متفاعلن إلى متفاعل " والقطع هو حذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله " (2)

أبكيك لو نقع الغلي ل بكائي وأقول لو ذهب المقا ل بدائي

5/5/5/ 5//5/// 5//5/// 5//5/// 5//5/// 5/5///

وفي البيت الثاني من القصيدة العروض صحيحة والضرب مقطوع وذلك في قوله:

وأعوذ بالصـ صبر الجميـ ل تعزيا لو كان بصـ صبر الجميـ ل عزائي

5/5/// 5//5/5/ 5//5/// 5//5/5/ 5//5/5/ 5/5///

ولعل كثرة الحركات في بحر الكامل يتناسب مع حالة الشجن والحزن وذوبان النفس المكلومة الحزينة الثائرة التي أنهكتها الحوادث وتوالت عليها المحن .

القافية :

تعد القافية الركن الثاني من أركان الموسيقا وهي جزء من المعنى الشعري في البيت وتتمم البناء الموسيقي للبيت الشعري وهي " أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة وتكرارها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن "(3) وقد اختار

([1])التصريع هو موافقة العروض للضرب تزيد بزيادته وتنقص بنقصه في مطلع القصيدة .

([2])أوزان الشعر وموسيقاه بين الأصالة والتجديد د/ محمد حسين حماد ط الأولى سنة 1414هـ 1994م ص 70

([3])موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ص 246 .

الشريف الرضي صوت الهمزة ليكون رويا لقصيدته وهو من الحروف " المتوسطة الشيوع "(1) في وقوعها رويا والهمزة صوت " شديد لا هو بالمجهور ولا بالمهموس ؛لأن فتحة المزمار مغلقة إغلاقا تاما فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين ولا يسمح الهواء بالمرور إلى الحلق إلا حين تنفرج فتحة المزمار وذلك الانفراج الفجائي الذي ينتج الهمزة "(2) ومخرج صوت الهمزة يتناسب مع الألم والحزن المسطر خلال هذه التجربة ويتوافق مع نفسية المبدع ، وقد جاء هذا الصوت مكسورا وهذه الكسرة تتناسب مع نفسية المبدع الذي هزته المحن والخطوب ونتج عن كسرة الهمزة حرفا يسمى الوصل والقفية مردوفة بالألف وقد التزم الشاعر الردف في كل أبيات القصيدة ومجيء القافية على تلك الشاكلة يزيد من موسيقى القصيدة .

الموسيقا الداخلية :

أسهمت الموسيقا الداخلية بدور بارز في هذا النص الشعري وذلك ناشئ عن التكرار الذي يتردد في أرجاء القصيدة على مستويات متباعدة وهو يكسب النص جرسا موسيقيا تلذ له النفس وتهش بمجرد سماعه وتتمثل الموسيقى الداخلية في الآتي :

تكرار الحرف :

في مطلع القصيدة كرر الشاعر حرف اللام خمس مرات وصوت الكاف ثلاث مرات والقاف ثلاث مرات والياء أربع مرات وذلك في قوله :

أبكيك لو نقع الغليل بكائي* وأقول لو ذهب المقال بدائي

([1])السابق ص 248 .

([2])الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص 77.

والياء واللام من الحروف القريبة في المخرج وكذلك القاف والكاف من الأصوات القريبة في المخرج وقرب هذه الأصوات وتكرارها على أبعاد متناسقة أسهم في بناء الموسيقا الداخلية للنص .

ويتكرر صوت اللام سبع مرات في هذا البيت :

أبـــــدي التجلـــــد ولـــــودرى* بتململـــي لقـــد اشـــتفى أعـــدائي

وصوت اللام من الحروف المجهورة ويتصف بصفة الزلاقة وهي سرعة النطق بالحرف لخروجه من طرف اللسان ، وقد أسهم تكرار صوت اللام في رسم الحالة التي تلبس بها الشاعر وذلك في قوله :" تململي " فالتقلب على الفراش من سوء ما نزل به حاكته هذه الكلمة بأصواتها المتكررة وصورت المشهد كأننا نراه .

وتكرار صوت الألف الواقع ردفا على مدار أبيات القصيدة كلها يحكي آهات الشاعر وأنيه خلال مدة الألف التي تعبر عن زفرات ونفس كحلها الحزن وأدمتها الجراح ، وكسرة الهمزة على مدار القصيدة كلها تحكي صورة النفس المنكسرة إزاء الحوادث التي أصابتها ، ويتكرر صوت الشين ثلاث مرات في هذا البيت .

مـــا كـــان يومـــا بـــالغبين مـــن اشـــترى* رغـــد الجنـــان بعيشـــة خشـــناء

وصوت الشين يتسم بصفة التفشي وهو يكسب البيت رنينا موسيقيا تلذ له النفس هذا بالإضافة إلى تكرار صوت النون ثمان مرات على أبعاد متناسبة وهو من أصوات الزلاقة وله رنين موسيقي جعل لكل كلمة قافية وذلك في قوله ما كان يوما بالغبين ، رغد الجنان ، بعيشة خشناء ، وصوت النون يخرج من طرف اللسان وقد أسهم هذا الصوت بتكرره في إثراء الموسيقى الداخلية للنص .

تكرار الكلمة :

إن الشاعر يكرر بعض الكلمات لأمرين هما : 1ـ تأكيد المعنى 2ـ احداث أثر موسيقي تطرب النفس وتتشوق لسماعه وفي شعر الرثاء يكون التكرار له مندوحة أخرى " إذا وجع القلب لما أصيب به من أسى وجد في تكراره للفظ راحة تحل مكان وخزة من وخزات الهم التي يتضور بها فؤاد المهموم "(1) ومن أمثلة تكرار الكلمة تكرار الجناس الناقص في قوله :

طـــورا تكـــاثرني الهمـــوم وتـــارة* آوي إلى أكـــــرومتي وحيـــــائي

فالتكرار وقع بين كلمة "طورا وتارة" وهو يحكي صورة الحيرة النفسية التي أصابت الشاعر .

ومن تكرار الكلمة تكرار كلمة فيك في بيت واحد وذلك في قوله :

فارقـــت فيـــك تماســـكي وتجملـــي ونســـيت فيـــك تعـــززي وإبـــائي

وهذا التكرار يدل على التحسر والندم على فراق أمه وقد فصل الشاعر بين أركان الجملة الفعلية بالجار والمجرور " فيك " ليدل على شدة حبه لأمه التي بفراقها ضعفت نفسه وقل صبرها واشتد جزعها من جراء هذه المصيبة .

وكرر الشاعر كلمة " وصنعت ، وصنيعة في قوله :

وصـــنعت مـــا ثلـــم الوقـــار صـــنيعه* ممـــا عرانـــي مـــن جـــوى البرحـــاء

وكرر كلمة " تفرق " مرتين للدلالة على الحزن والحسرة في قوله :

وتفـــرق البعـــداء بعـــد مـــودة صـــعب فكيـــف تفـــرق الغربـــاء

وكرر الفعل المضارع " يبلي" في قوله :

وتـــداول الأيـــام يبلينـــا كمـــا * يبلـــي الرشـــاء تطـــاوح الأرجـــاء

([1])التكرير بين المثير والتكرار د/ عز الدين على إسماعيل ص 129 .

وكرر الجناس الناقص في قوله :

بصيام يوم القيظ تلهب شمسه * وقيام طول الليلة الليلاء

فكلمة صيام وقيام بينهما جناس ناقص مردوف وكرر كلمة الليلة والليلاء ولعل القارئ يلحظ أن الجناس " تعبير فني يكسب الكلام قيما جمالية بما يضيفه إلى النسق اللغوي من انسجام وتناسب وتآلف في البناء الصوتي يثري المعنى ويغني الصياغة اللغوية "(1)

وأجد الشاعر كرر لفظة "من" في صدر ثلاثة أبيات متتالية ليدل على شدة الحزن والفقد للتي كانت تمده بما يحتاجه في حياته المادية والمعنوية وذلك في قوله :

ومن الممول لي إذا ضاقت يدي ومن المعلل لي من الأدواء

ومن الذي إن ساورتني نكبة كان الموقى لي من الأدواء

أم يلط عليَّ ستر دعائه حرما من البأساء والضراء

وكرر الشاعر الفعل ومصدره في قوله :

وأهب من طيب المنام تفزعا فزع الديغ نبا عن الإغفاء

وكرر الفعل يرغو والمصدر رغاء، وينوء نوء ، ويسوقها سوق، وذلك في قوله :

يهفو بها جنح الدجى ويسوقها سوق البطاح بعاصف هوجاء

وكرر لفظة " ارتكاضي " وركض في آخر بيت من القصيدة في قوله :

كان ارتكاضي في حشاك مسببا ركض الغليل عليك في أحشائي

(1)دراسات في المعاني والبديع د/ عبد الفتاح عثمان ط مكتبة الشباب ص 178 .

ض

المبحث الرابع

الموازنة بين القصيدتين

مقدمة القصيدتين :

في قصائد الرثاء غالبا ما يهجم الشاعر على موضوعه دون تقديم ؛لأن هول الحادث لا يترك مجالا للنظر في أشياء أخرى غيره ، وقد بدأ الشاعران القصيدتين بالبكاء وإن اختلف التصوير لدى كل واحد منهما عن الآخر فابن نباته السعدي بدأ قصيدته بقوله :

أيا دمع هل للحزن عندك مطمع فما كل محزون إلى الدمع يفزع

وبدأ الشريف الرضي قصيدته بالبكاء قائلا :

أبكيك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي

والفرق بين المطلعين أن ابن نباته السعدي بدأ قصيدته بالنداء ثم أعقبه بالاستفهام والنفي وهذا يعني أنه بدأ بالأسلوب الإنشائي ، وأما الشريف الرضي فقد بدأ مطلع القصيدة بالجملة الخبرية التي أعلن خلالها أنه سيبكي أمه ولكن البكاء لن يشفي غلته ولن يبرئ سقمه وهذا الكلام لم يخفف عنه ما نزل به، ومطلع ابن نباته يقرر حكمة رائعة وهي : ما كل محزون إلى الدمع يفزع ، وكذلك مطلع الشريف الرضي اشتمل على حكمة مفادها أن الكلام لا يخفف حدة الألم ومهما قيل من كلام فإنه لا يكشف الداء لهذا قدم جواب لو الامتناعية للدلالة على اليأس من النتيجة المتوقعة فقد امتنع الجواب عن التحقق لامتناع الشرط عن الحدوث .

وقد أجاد كلا الشاعرين في هذين المطلعين وأثرا في عاطفة متلقي هذا العمل الإبداعي لأنهما صورا مشاعر الأسى والحزن تجاه موت أمهما وقد بدى ابن نباته متماسكا إلى حد ما وذلك خلال عرض مشاعره في

صورة النداء والاستفهام واما الشريف الرضي فقد هزه الحدث هزا وأدمى فؤاده فلم يدري ما يصنع فقد أخرجه البكاء عن صورة الرجل الوقور الحيي إلى صورة الرجل المتردد .

الألفاظ والأساليب بين القصيدتين :

اتسمت الألفاظ والعبارات بالسهولة والسلاسة والسلامة من الأخطاء والبعد عن التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي واختار كلا الشاعرين معجما شعريا عبر عن حزن الشاعرين وشدة مصابهما ومن يمعن النظر في كلتا القصيدتين يلحظ الآتي :

أولا : لجأ ابن نباته السعدي إلى الألفاظ التي تتناسب مع المقام الذي صب تجربته فيه، واختار ألفاظا تجسد حزنه على أمه، ومن ذلك الدمع ، الحزن ، ويفزع وأفنيت ، وتداعت ، والنوائب ، والقيامة ، والمصائب ، والمنايا ، وأروع ، ومثل هذه الألفاظ ناسبت الحالة التي كان عليها الشاعر ، وصورت حزنه .

وأما الشريف الرضي فوقع على ألفاظ بعينها جسدت هول المصيبة التي نزلت به ولذا اختار ألفاظا من مثل قوله : أبكيك ، دائي ، عبرة ، الصبر الجميل ، التجلد ، الحمام ، تململي ، وزفرة ، وجوى البرحاء ، وفزع اللديغ ، وهذه الألفاظ تدل على تجلده وتصبره وخوفه من شماتة الشامتين وخاصة أنه كان يتبوأ مكانة مرموقة فقد أسندت إليه نقابة الطالبيين ولذا حاول أن يبدو متماسكا أمام هذا الحادث الذي هز كيانه ؛ ولكن الألفاظ كشفت عن خبيئة نفسه وصورت ضعفه وقهر الحزن له على الرغم من إظهاره التجلد ومن ذلك قوله :

كم زفرة ضعفت فصارت أنة* تمتمتها بتنفس الصعداء

لهفان أنزو في حبائل كربة* ملكت عليَّ جلادتي وغنائي

ثانيا : **غلبة الألفاظ الدينية في قصيدة الشريف الرضي** :

وصف الشريف الرضي خلائق أمه فأجاد الوصف ؛لأن الوصف نابع من العقيدة الدينية المتمثلة في قوله : الزهد ، وصيام يوم القيظ ، وقيام الليل، واشترت رغد الجنان بعيشة خشناء ، وقد خلت قصيدة ابن نباته السعدي من مثل هذه المصطلحات .

ثالثا : وصف الشريف الرضي أمه في خمسة عشر بيتا من القصيدة بدأ من البيت الثالث والعشرين إلى قوله :

ذخرت لنا الذكر الجميل إذا انقضى * ما يذخر الآباء للأبناء

بينما اقتصر ابن نباته السعدي في الوصف على بيتن اثنين هما :

فقدت كبيرا بر أم حفية * كما فقد الثدي المعلل مرضع

إذا اختفرت زان الحجال عفافها * وإن سفرت فبالحياء تقنع

رابعا : **التكرار**

من الظواهر الأسلوبية التي كان لها صدى في كلا القصيدتين ظاهرة التكرار وهو من الظواهر التي تناسب جو الحزن والألم وتعبر عن الحيرة الشديدة إزاء هذا الحادث الأليم وهو موت أم الشاعرين وقد رصدت تلك الظاهرة عند الشاعرين .

خامسا :

غلبة الأساليب الإنشائية في قصيدة ابن نباته السعدي وهذه خصيصة كثرت في قصيدة ابن نباته بينما أجدها قليلة في قصيدة الشريف الرضي .

سادسا :

التوازن بين الأفعال الماضية والأفعال المضارعة في النصين :

جاءت الأفعال الماضية لتصور ما كانت عليه أم الشاعرين وجاءت الأفعال المضارعة لتحكي ما آل إليه حال الشاعرين بعد رحيل أمهما وهذا التوازن بين الأفعال الماضية والأفعال المضارعة يتناسب مع التجربة الشعرية ومن شواهد ذلك قول ابن نباته :

تداعت بلا طعن أنابيب عاملي* وأصبح حدي بالنوائب يقطع

فنجد الفعل الماضي تداعت ، والفعل المضارع يقطع وكلا الفعلين جسدا حالتين مختلفتين فتداعت تصور مشهدا مضى والفعل المضارع يقطع تدل على استمرارية القطع في الزمن المستقبل .

ومن صور التوازن بين الفعل الماضي والفعل المضارع قول الشاعر :

لقد فطن الدهر الغبي لنكبة* يذل لها عبد العزيز ويضرع

فالفعل الماضي جاء في قوله فطن ، والفعل المضارع جاء في قوله يذل ويضرع وكلا الفعلين مترتب على الآخر .

وفي قصيدة الشريف الرضي يأتي الفعلان الماضي و المضارع ليصورا حالتين مختلفتين وقد ترتبت إحداهما على الأخرى في قوله :

ذخرت لنا الذكر الجميل إذا انقضى* ما يذخر الآباء للأبناء

فالفعل ذخرت ويذخر يدلان على ربط الشاعر بين الماضي والحاضر برباط فني حميم ويحكيان أحداثا مضت ولكن أثرها باق .

سابعا: **كثرة الأفعال المضارعة المنفية في قصيدة ابن نباته السعدي وتلك الظاهرة تؤكد أن الشاعر لم يكن يتوقع حدوث هذه الأفعال التي فاجأته في حاضره ومن ذلك قوله :**

تبـــادر نحـــوي تبتغـــي أن تســـرني* ولم تـــــدر أنـــــي بالســـــرور أروع

فقوله :"ولم تدر" تحكي صورة حدثت في المستقبل ولم تكن تعلم وكانت نتيجتها عظيمة الأثر في نفس الشاعر .

ويأتي الفعل المضارع أخاف ثم يعقبه الفعل المضارع المنفي بلم في قوله:" ولم أدر" لنرى صورتين لهما أثر بارز في حياة الشاعر في قوله:

أخـــاف عليـــك المـــوت في شـــهر نـــاجر* ولم أدر أن الأمـــــر أوحـــــى وأســـــرع

وهذه ظاهرة أسلوبية وقعت كثيرا في قصيدة ابن نباته السعدي ولم أجدها في قصيدة الشريف الرضي .

ثامنا : الجمع بين الفعل ومصدره من السمات الأسلوبية في قصيدة الشريف الرضي وهو يسهم في بناء الموسيقا الداخلية للتجربة الشعرية ويطفى معاني تلح على نفسية المبدع ويرغب في تكرارها ومن ذلك قوله

يرغـــو رغـــاء العـــود جعجعـــة الســـرى* وينـــــوء نـــــوء المقـــــرب العشـــــراء

فقد جمع الشاعر بين الفعل يرغو ومصدره رغاء ، وبين ينوء ومصدره نوء، وهذا التكرار بين الفعل ومصدره يوحي بعظمة هذا السحاب الذي يتمنى سقوطه على قبر أمه فهو سحاب عظيم مجلجل برعود تهز السماء هزا .

ومن الجمع بين الفعل ومصدره قول الشاعر :

صـــلى عليـــك ومـــا فقـــدت صـــلاته قبـــل الـــردى وجـــزاك أي جـــزاء

فالفعل جزى ومصدره جزاء وجاء المصدر منكرا لعظم هذا الجزاء وحتى تحار النفس في تصور هذا الجزاء

ولم أجد هذه السمة الأسلوبية في قصيدة ابن نباته السعدي وهذا يدل على أن الشريف الرضي كان حريصا على تجويد موسيقى القصيدة الداخلية وقد تحقق له ما أراد .

تاسعا :**التأثر بالقرآن الكريم والاقتباس منه** :

تأثر الشريف الرضي بالقرآن الكريم وأخذ بعض معانيه ومن مظاهر هذا التأثر قوله:

ما كان يوما بالغبين من اشترى رغد الجنان بعيشة خشناء

فهذا الشراء لرغد الجنان يتناص مع المعنى الوارد في قول الله سبحانه وتعالى :" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ....."(1) فمعنى الشاعر يكاد يقترب من المعنى الوارد في الآية فالشراء في البيت الشعري الغرض منه الربح والربح الجزيل يكون في رغد الجنان فقد رضيت أم الشاعر أن تعيش عيشة خشناء لتربح ما عند الله وتلك أعظم جائزة

وظاهرة التأثر بالقرآن الكريم موجودة في قصيدة الشريف الرضي ولم أجدها في قصيدة ابن نباته السعدي .

عاشرا : **أسلوب الحكمة في القصيدتين** :

لقد خلت قصيدة الشريف الرضي من الحكمة ؛لأنه شغل بالحديث عن أمه والبكاء عليها من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها فلم يخرج عن إطار التجربة ليتأملها وليصوغ حكما خاصة بالموت والحياة وأما قصيدة ابن نباته السعدي فقد أنهاها بحكم رائعة تمثل خلاصة تجاربه في الحياة

(1)الآية من سورة التوبة رقم (111) .

فقد صور ملذات الحياة ومتعها بخيال يراه النائم ثم يفيق منه سريعا وذلك في قوله :

ومـــــن لـــــذة كـــــأن وصـــــالها خيـــــال في الكـــــرى حـــــين أهجـــــع

وصور نعيم الحياة وبؤسها بسرعة الانقضاء وذلك في قوله :

مـــع الوقـــت يمضـــي بؤســـه ونعيمـــه كـــأن لم يكـــن والوقـــت عمـــرك أجمـــع

وجمع الحياة الدنيا في ثلاثة أمور سرعان ما تنقضي وذلك في قوله :

ومـــا خـــير عـــيش نصـــفه ســـنة الكـــرى ونصـــف بـــه يعتـــل أو يتفجـــع

فقد حصر الحياة الدنيا في ثلاثة أمور لا خير فيها وهي النوم والمرض والموت ؛ ولهذا لم يعد يحفل بطيب العيش وتلك فلسفة حزين سلبته الحياة أمه فلم يعد يرى في الحياة ما ينفع .

الوحدة العضوية في القصيدتين :

إن من يدقق النظر في قصيدتي ابن نباته السعدي والشريف الرضي في رثاء أمهما يلحظ أنهما من الشعر الذاتي الذي يعبر فيه الشاعر عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه الذاتية تجاه مصيبة حلت بكلا الشاعرين ، وتتحقق الوحدة العضوية في القصيدة إذا تحققت هذه العناصر وهي :

1ــ وحدة الموضوع التي " ترشح احساسات من جنس واحد وتثير أفكارا من نوعية واحدة وتحدث آثارها في المتلقي على نحو متقارب مما يؤهل بالفعل في ظلال هذه الأبعاد الثلاثة لميلاد الوحدة العضوية التي تصبح نتاجا طبيعيا لوحدة الإحساس ووحدة التعبير ووحدة الأثر أي وحدة الربط الموضوعي والنفسي بين موجات القصيدة في مدها وانسياحها جميعا "(1)

(1)عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية د/ محمد أحمد العزب ط دار المعارف ط الأولى سنة 1980م ص 375 .

2ـ ترابط الأفكار وتسلسلها لتصل إلى غاية واحدة .3ـ وحدة الشعور والعاطفة .4ـ ترتيب الأفكار والصور داخل النص ترتيبا منطقيا بحيث لا يجوز التقديم أو التأخير في النص (1) وفي الوحدة العضوية يكون البيت الشعري جزءا من أجزاء القصيدة ولبنة رئيسة يسهم مع غيره في بناء فني شامخ تلتحم فيه أبيات القصيدة بحيث لا يمكن نزع بيت من مكانه وإلا انهدم البناء كله وقد أشار عبد الرحمن شكري إلى قيمة البيت في النص الشعري فقال :"قيمة البيت في الصلة التي بين معناه وبين موضوع القصيدة ؛لأن البيت جزء مكمل ولا يصح أن يكون البيت شاذا خارجا عن مكانه من القصيدة بعيدا عن موضوعها وقد يكون الإحساس بطلاوة البيت وحسن معناه رهينا بتفهم الصلة التي بينه وبين موضوع القصيدة ومن أجل ذلك لا يصح أن تحكم على البيت بالنظرة الأولى العجلى الطائشة بل بالنظرة المتأملة الفنية فينبغي أن ننظر إلى القصيدة من حيث هي فرد كامل لا من حيث هي أبيات مستقلة فإننا إذا فعلنا ذلك وجدنا أن البيت قد لا يكون مما يستفز القارئ لغرابته وهو بالرغم من ذلك جليل لازم لتمام معنى القصيدة "(2) وعندما نقلب النظر في قصيدة ابن نباته السعدي يتضح لنا أنها تدور حول موضوع واحد وهو رثاء أمه وعلى الرغم من وحدة الموضوع فإنها تضمنت عدة أفكار تدور حول غاية واحدة وهي : الأبيات من 1: 14 تدور حول البكاء لهول ما نزل به ، ومن 15: 21 يعاتب الدهر الذي فجعه في أحب الناس إليه ، ومن 22: 29 يذكر أثر

([1])بتصرف ينظر في ذلك كتاب النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص 373 .

([2])ديوان عبد الرحمن شكري ط المجلس الأعلى للثقافة سنة 2000م ص 405 .

موت أمه على نفسه ، ومن 30 : 41 يتحدث عن أثر هلاك قومه على حياته ، ومن 42 : 45 يتحدث عن موقفه من الدنيا بعد رحيل الأهل والأحبة ، وهذه الأفكار مترابطة فهي تدور حول فكرة واحدة وهي الموت الذي ألجأ الشاعر إلى البكاء ثم معاتبة الدهر ثم الحديث عن أثر هذه الفجيعة على نفسه وقد استتبع ذلك الحديث عن هلاك قومه من ذي قبل والقصيدة تدور في قالب الحزن والفجيعة التي تعرض لها الشاعر وأما التقديم والتأخير في الأبيات فذلك لا يمكن تحققه إلا في القصائد القصصية والتاريخية وفي القصائد الغنائية يكفي فيها وحدة الموضوع ووحدة المشاعر ووحدة الأفكار وتسلسلها ووحدة الجو الموسيقي والنفسي فكل ذلك يدل على نجاح مثل هذه التجارب .

وأما قصيدة الشريف الرضي في رثاء أمه فقد جاءت أفكارها مرتبة على هذه الصورة :1ـ هول الموت وفقدان الاتزان 2ـ أثر موت أمه على نفسه 3ـ الحديث عن صفات أمه 4ـ وصف الحالة النفسية التي انتابته جراء فقد أمه 5ـ الفخر بأخواله وما حازوا من أمجاد 6ـ الحديث عن أمه والدعاء لها .

وهذه الأفكار تدور حول تصوير عاطفة الحزن والحسرة على موت أمه وموضوع القصيدة واحد وهو الرثاء التي دارت في فلكه القصيدة حزنا وندبا وتأبينا وألحظ أن الشاعر كرر أفكارا بعينها مثل تعداد صفات أمه فقد كررها في القصيدة وهذا التكرار يتناسب مع الحالة النفسية التي كان عليها فهو مهموم مغموم ومما يعذر به الشاعر حبه الشديد لأمه التي يتردد صداها في قلبه وفي كل صورة من صور القصيدة .

ض

الخاتـــمة

الحمد لله الذي أشرقت بنوره السماوات والأرض، وصلاة وسلاما على النبي المصطفى خير من نطق بالضاد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين وبعد .

لقد قمت بهذه الدراسة المتأنية التي جاءت تحت عنوان" رثاء الأم بين ابن نباته السعدي والشريف الرضي دراسة تحليلية موازنة" وبعد هذه المعايشة الموضوعية والفنية للقصيدتين خلصت الدراسة إلى عدة نتائج هي :

ـ اتفقت القصيدتان في البكاء وفقدان الاتزان النفسي وقد بدا ذلك جليا في كلتا القصيدتين .

ـ كلا الشاعرين تحدث عن صفات أمه وقد قصر ابن نباته في هذا الوصف بينما استطرد الشريف الرضي في الحديث عن صفات أمه .

ـ عاتب كلا الشاعرين الدهر وقد قصر الشريف الرضي في معاتبة الدهر بينما استطرد ابن نباته في ذلك

ـ عمد كلا الشاعرين إلى الدعاء للقبر بالسقيا ويتضح ذلك في قول ابن نباته السعدي :

سقى الرائح الغادي قبورا كأنها ظهور جمال بركت وهي ضلع

وقد تفوق الشريف الرضي في ذلك وخص قبر أمه بالسقيا في صور أدبية استطرد في تفصيل جزئياتها ومنها قوله :

يا قبر امنحه الهوى وأود لو نزفت عليه دموع كل سحاب

ـ قصيدة ابن نباته جاءت على أنغام بحر الطويل المقبوض العروض والضرب ورويها حرف العين بينما جاءت قصيدة الشريف الرضي على

أنغام بحر الكامل ورويها الهمزة واعتنى الشاعران بالتصريع في مطلع القصيدة .

ـ انفرد الشريف الرضي بالحديث عن نسب أمه وما حازوا من أمجاد مسجلة في تاريخ الأمة بمداد من نور وذلك في قوله :

آباؤك الغر الذين تفجرت بهم ينابيع من النعماء

وأما ابن نباته فلم يتطرق إلى الحديث عن نسب أمه .

ـ الصور الكلية تبدو واضحة في قصيدة الشريف الرضي وأما ابن بناته السعدي فقد اعتمد على الصور الجزئية وقد ظهر ذلك جليا أثناء تحليل الصورة عند الشاعرين .

ـ تتسم القصيدتان بالصدق الفني والواقعي في كلتا التجربتين وجاءت الألفاظ منسجمة مع التجربة لتسجل عظم الموت وسطوته في القصيدتين.

والحمد لله أولا وآخرا

د/ يوسف محمد عزاز

مدرس الأدب والنقد في الكلية

المصادر والمراجع

*اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د/ محمد مصطفى هدارة ط المكتب الإسلامي ط الأولى سنة 1401هـ 1981 م ص 464 .

*الأسلوب والخطاب الشعري الشريف الرضي نموذجا محمود أحمد الطويل ط الهيئة العامة لقصور الثقافة

*الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ط مكتبة نهضة مصر ص 75

* أصول النقد الأدبي د/ أحمد الشايب ط الثالثة ط مكتبة النهضة المصرية ص 190 .

*أضواء على الأدب الحديث د/ أحمد محمد الحوفي ط الأولى سنة 1981 م ط دار المعارف

*الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ت أحمد أمين وأحمد الزين ط مكتبة الحياة للطباعة والنشر ج1 ص 137 .

*أوزان الشعر وموسيقاه بين الأصالة والتجديد د/ محمد حسين حماد ط الأولى سنة 1414هـ 1994م

*بنيات أسلوبية في ديوان تغريبة جعفر الطيار ليوسف وغليس إعداد محمد العربي الأسد 2010/2009م .

*البيان والتبيين للجاحظ ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ج2

*تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الذبيدي ط مكتبة حكومة الكويت سنة 1979م ج38

*تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وورادیها للخطيب البغدادي ت د/ بشار عواد معروف المجلد الثاني عشر ط دار الغرب الإسلامي سنة 1422هـ2001م ص 241 .

*التصوير البياني د/ محمد أبو موسى ط الثالثة سنة 1413هـ 1993مط مكتبة وهبة

*التكرير بين المثير والتأثير د/ عزالدين علي السيد ط دار الطباعة المحمدية ط الأولى سنة 1398هـ 1978م

*الحيوان للجاحظ ت عبدالسلام هارون ط مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط الثانية سنة 1385هـ1965م ج3 ص 132 .

*خصائص الأسلوب في الشوقيات بقلم محمد الهادي الطرابلسي ط المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية سنة 1981م

*دراسات في المعاني والبديع د/ عبد الفتاح عثمان ط مكتبة الشباب

*ديوان ابن الرومي شرح الأستاذ أحمد حسن بسج ج1 ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان

*ديوان ابن نباتة السعدي ج1 ت عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ط منشورات وزارة الإعلام الجمهورية العراقية سنة 1977م ص 30 .

*ديوان البحتري ت حسن كامل الصيرفي المجلد الثاني ط الثالثة ط دار المعارف ص 1048 .

*ديوان الخنساء ت د/ إبراهيم عوضين ط الأولى 1405 هـ 1985م ط مطبعة السعادة ص 298

*ديوان الشريف الرضي ت د/ محمود حلاوي ط دار الأرقم ط الأولى سنة 1419هـ1999م .

*ديوان الشريف الرضي ت د/ يوسف شكري فرحات ط الأولى سنة 1415هـ 1995م ط دار الجيل بيروت ج1

*ديوان عبد الرحمن شكري ط المجلس الأعلى للثقافة سنة 2000م

*الديوان لمؤلفيه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني ط الرابعة ط دار الشعب .

*الرثاء الدكتور شوقي ضيف ط دار المعارف ط الرابعة .

*شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ت محمد إبراهيم ط دار الكتاب العربي المجلد الأول ط الأولى 1428هـ 2007م ص 21 .

*الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية د/ كريم الوائلي ط دار العالمية ص 277

*شعر بشر بن أبي حازم دراسة أسلوبية رسالة (ماجستير) إعداد سامي حماد الحمصي ط سنة 1428 هـ 2007 م

*صوتيات اللغة العربية د/ البسيوني عبد العظيم البسيوني ط الأولى سنة 1422هـ

*عبقرية الشريف الرضي د/ زكي مبارك ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة سنة 2012 م حمد الحلو القسم الأول ط هجر ط الأولى سنة 1406 هـ 1986م ص 81 .

*عضوية الموسيقى في النص الشعري د / عبد الفتاح صالح نافع ط مكتبة المنار ط الأولى سنة 1405 هـ 1985 م

*العمدة لابن رشيق القيرواني ت الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ط مكتبة الخانجي بالقاهرة ج2 ط الأولى سنة 1398هـ2000م

*عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية د/ محمد أحمد العزب ط دار المعارف ط الأولى سنة 1980م

*الفن ومذاهبه في الشعر العربي د/ شوقي ضيف ط دار المعارف

*في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ط دار المعارف ط السابعة

*القافية تاج الإيقاع الشعري د/ أحمد كشك ط المكتبة الفيصلية مكة المكرمة

*الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي ت الحساني حسن عبد الله ط مكتبة الخانجي بالقاهرة

*كتاب في علمي العروض والقافية د/ أمين علي السيد ط دارالمعارف ط الرابعة سنة 1990 م

*لسان العرب لابن منظور ط دار إحياء التراث العربي ط مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان سنة 1419هـ .1999م ج5

*اللغة الشاعرة عباس محمود العقاد ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

*المرشد إلى فهم أشعار العرب د/ عبد الله الطيب ط دار الفكر ط الثانية سنة 1970 م ببيروت

*معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب مجدي وهبة ط مكتبة لبنان ط الثانية 1984م

*المعجم الوسيط ط الثالثة ط مطابع الدار الهندسية سنة 1405هـ 1985م .

*من صحائف النقد الأدبي د/ عبد الوارث عبد المنعم الحداد ط الأولى سنة 1410 هـ 1989م ط دار الطباعة المحمدية ص

*منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني ت محمد الحبيب بن خوجة ط الثالثة ط دار الغرب الإسلامي

*موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ط السابعة سنة 1977 م مكتبة الأنجلو المصرية

*النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ط نهضة مصر سنة1996م

*نقد الشعر لأبي الرج قدامة بن جعفر ت الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ط الأولى ط مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1398هـ1978م

*وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ت الدكتور إحسان عباس ط دار صادر بيروت ج3 ص 386

*يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي شرح وتحقيق الدكتور / مفيد محمد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ج2 ص 447 .

ض

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	909
المبحث الأول: مفهوم الرثاء في اللغة والاصطلاح .	911
علاقة الرثاء بالمدح	913
التعريف بالشاعرين وآراء النقاد في شاعريتهما .	915
المبحث الثاني :التحليل اللغوي والبناء الموضوعي للقصيدتين	925
: المبحث الثالث :البناء الفني للقصيدتين وجاء في محاور ثلاثة	943
1ـ التجربة الشعرية .	943
2ـ الصورة الشعرية .	954
3ـ الموسيقا .	972
المبحث الرابع :الموازنة بين القصيدتين .	989
الخاتمة .	999
فهرس المصادر والمراجع .	1001
فهرس الموضوعات	1007

ض